المقدمات العشر
THE TEN PREMISES

المقدمات العشر

استخلصها -بعون الله
من علم الأولين والآخرين:
عمران بن فضل شاكر

الفهرس

الفهـــــرس 1
المقـــدمة 2
المقدمة الأولى: الدنيا نقطة، والآخرة خط لا نهاية له 3
المقدمة الثانية: أوامر الخالق أولى من أوامر غيره (تحقيق الأماني ليس مطلباً) 5
المقدمة الثالثة: الكثرة -الشهرة- ليست دليلاً على الحق 8
المقدمة الرابعة: الحق شيء وأهله شيء آخر(الحق يؤخذ من أي أحد) 11
المقدمة الخامسة: الإمكانيات والتأثير (حلف الفضول) 14
المقدمة السادسة: الآلام ليست مقياساً 17
المقدمة السابعة: المجتمع يؤثر - (إنك تأتي قوماً أهل كتاب) 20
المقدمة الثامنة: التجديد مطلب؟ 24
المقدمة التاسعة: ثم ماذا ؟ 28
المقدمة العاشرة: النية الصحيحة لا تعني أن العمل صحيح (اعرف مصدر كل معلومة) 31

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله نستوهبه التبصّرَ واتباعَ الحق، اللهم صل وسلم على نبينا محمد. أما بعد:

كأني بالأموات كلهم يهتفون للبشر الأحياء؛ بما أنهم عرفوا حقيقة الدنيا، وكل فرد منهم الآن في قبره يرى مقعده في الجنة أو مقعده في النار، كأني بهم يهتفون للأحياء بهذه المقدمات العشر - أنفع وأهم عشر معلومات علمية منطقية تفيد كل إنسان في أي مجال - ويدعوننا لاستحضارها في كل شأن من شؤون حياتنا، لأنهم سيفعلون ذلك لو رجعوا للدنيا.

فما أكثرَ من تكونُ المعلوماتُ عندَه حاضرة، ولكنه لم يضع كلَ معلومة في موضعها ومنزلتها المناسِبة، لاختلّت المفاهيم عنده وأخطأ في تطبيقه وعمله! فإذا أراد أي شخصٍ منا أن يقرأ، أو يتحدث عن أي فكرة أو مسألة في أي علمٍ وفن [تفسيرِ آية، شرحِ حديث، قصةٍ من قصص التاريخ، مفهومٍ من المفاهيم العقلية والشرعية، فلمٍ أو مسلسل أو أي مقطع توعوي أو بيان أو محاضرة] فإن فهمه وإدراكه لهذه الأمور لن يكون فهماً صحيحاً شاملاً دون إدراك واستحضار هذي المقدمات العشر.

فإن هذه المقدمات العشر تجعلك تدرك الأمور إدراكاً صحيحاً دون اضطراب أو اختلال، وتضع كل مسألة في موضعها الصحيح بالميزان الصحيح، فلكل موضوعٍ مقامٌ وقدرٌ لو لم يوضع فيه اختلّت المفاهيم ثم اختل العمل، ولا تكون العواقب كما يُراد لها أن تكون. فالأكثر أهميةً من جمع المعلومات هو وضعُ كلِ معلومة في موضعها الملائم لكي تحصل على المفاهيم الصحيحة، فالعاقل لا ينشغل بالتفصيل عن التأصيل! بل قد يتعجّب كثير من الناس إذا علم أن جل الأمراض النفسية والعضوية الموجودة في زماننا هي بسبب عدم إدراك الناس لهذه المقدمات العشر أو بعضها! فهاذه المقدمات العلمية المنطقية تُريح الروحَ والجسدَ معاً، وهي كالخمر -إلا أنها حلال- كلما تخمرت كلماتها ومعانيها في عقلك فإنها لا تزال تحيي فيك المعاني الحسنة التي فيك وتنمّيها بنور الوحي، ستعيش ذلك إذا أدركتها واستحضرتها قبل الولوج في أي شيء، فذلك أليق وأبلغ مما سأكتب عن أثرها ألف ألف مرة!

وقد تجاذبني منهجان لنشر هذه المقدمات العشر، منهج البيان باللفظ والإشارة، كما استحسنه القرافي -وغيره- إذ يقول: «.. والأحسَنُ أن يكون البيانُ له باللفظِ دون الكتابة، فإنَّ اللسان يُفهِمُ ما لا يُفهِمُ القلمُ، لأنه حَيٌّ والقَلَمُ مَوَات...لا سيَّما في أمرِ الدين وما يَرجِعُ إلى العقائد»[1]، ومنهج البيان بالكتابة، إلا أن الله قد يسّر نشر هذه المقدمات العشر مرئيةً مسموعةً، ومكتوبةً كذلك مع ترتيب مغاير يناسب القارئ غير مخل، فلا تعْدُ عيناك عنها.

وقد استُفتحت كل حلقة بمشهد تمثيلي توضيحي يعين المتلقي على الفهم. وقد تُرجم العمل كاملاً -بفضل الله- لثمانين لغة حتى هذه اللحظة، فكن ممن يُسهم في نشر هذه المقدمات العشر لكل المتحدثين بهذه اللغات.

نسأل الله أن يوفقنا جميعاً لصالح القول والعمل.

استخلصها -بعون الله- من علم الأولين والآخرين:

عمران بن فضل شاكر الأعوان

(1) الإحكام (ص266). وقال الجاحظ: «والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص». البيان والتبيين (83/1)، وقال أيضاً: «ولو قبضت يده ومنع حركة رأسه، لذهب ثلثا كلامه». البيان والتبيين (83/3).

المقدمة الأولى: الدنيا نقطة، والآخرة خط لا نهاية له

الدنيا نقطة. الدنيا بكل ما فيها (نقطة)، والآخرة خط لا نهاية له! الدنيا قطرة من بحر، والآخرة بحرٌ لا ساحل له[1].

والنقطة مقارنةً بالخط الذي لا نهاية له، لا شيء! لا شيء!.

مهما عشت في الدنيا في نعيم وخير أو بؤسٍ وشدة، فهي لا شيء، مقارنةً بعيش الآخرة [الحياة الحقيقية - المستقبل الحقيقي][2]. الله خلقنا لنعيش مليارات السنين بل أكثر! خلقنا لنعيش حياة أبدية لا نهاية لها، فكل واحد منا سيعيش حياة خالدة لا نهاية فيها ولا حد لها، خلودٌ فلا موت!، لكننا قبلها سنمر بفترة في القبر لنعيش حياة البرزخ، المعروف بمصطلح الموت (فترة مؤقتة) يعلم فيها كل شخص أين سيكون مستقبله الحقيقي ومكان خلوده الأبدي. استحضر هذي المقدمة عند كل حركاتك وسكناتك في حياتك، استحضر هذي المقدمة عند كل فرح، عند كل مصيبة، استحضرها سواءً كنت ظالماً أو مظلوماً، حاكماً أو محكوماً، استحضر هذي المقدمة قبل كل قرار تقرره في حياتك، قبل كل خطوة تقدم عليها؛ لتفخر في الخط الذي لا نهاية له، لتفخر بما قدمت في هذه النقطة وهو لا شيء! بل قيمته تكمن في نتيجته. ويا لكرم الله وفضله، يحرم ويوجب أشياء قليلة، في زمن قصير [عشرين أو سبعين سنة] = نقطة! يكلفك الله بأمور قليلة العدد مقابل نتيجة عظيمة جداً في الخط الذي لا نهاية له! لهذا كل إنسان تتغير أفكاره عند لحظة الموت؛ لأن المؤثرات التي حوله تزول! فيتمنى أن لو يرجع للدنيا ليتزود من الطاعات أكثر، كل إنسان؛ لأنه أبصر مستقبلَه الحقيقي (الخط الذي لا نهاية له). ويا لشقاء وتعاسة من يرى النقطة كل شيء، يبذل كل وقتِه وجهدِه ليسعد في النقطة!.

ابتعد لتتضح لك الصورة كاملةً، واعلم أن كل إنسان بفطرته يبحث عن السلام والراحة، فمنهم من يطلبها ويعيشها[3] في النقطة، ومنهم من يطلبها ويعيشها في الخط الذي لا ينتهي، وكل إنسان -عاقلاً كان أو جاهلاً- يبحث عن اللذة ويكره الألم، كل إنسان، فالجاهل يطلب اللذة والسلام في النقطة فقط، والعاقل يطلب اللذة والسلام في الخط الذي لا ينتهي. وهذه المقدمة الذهبية من أعظم ما يطمئن الذكي العاقل.

---

(1) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (2858)، ورواه الترمذي وابن ماجه وأحمد

(2) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ». رواه الترمذي (2465)، ورواه ابن ماجه والدارمي وأحمد. وقَالَ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ». رواه الترمذي (2320)، وابن ماجه (4110).

(3) وقد لا يعيشها ولا ينال منها شيئاً؛ لأنه وكل إلى نفسه!.

كـما يقـول سـيد قطـب -رحمـه اللـه-: «وتتصـل الحيـاة الدنيـا بحيـاة الآخـرة، ونـرى المـوت نقلـة مـن عـالم الفنـاء إلى عـالم البقـاء، وخطـوة يخلـص بهـا المؤمـن مـن ضيـق الأرض إلى سـعة الجنـة، ومـن تطـاول الباطـل إلى طمأنينـة الحـق، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين، ونرى الرجل المؤمن وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه فيرون ما آتاه ربه من الكرامة؛ ليعرفوا الحق معرفة اليقين». نعم، كل الآلام والمصائب التي تمر بمن يهتم بمستقبله الحقيقي، كل هذي الشدائد والمشاق يستمتع بها؛ لأن مآلها سلام وراحة في الخط الذي لا نهاية له، وسيفنى وينتهي كل ما بذل من تعب ومشقة في النقطة، وتبقى النتيجة والفوز؛ لأن النقطة بالنسبة للخط لا شيء[1]! كما خُير يوسف بين بلاء السجن وبلاء ارتكاب الفاحشة، فقرر خسارة النقطة ليربح في الخط الذي لا نهاية له[2]! وهذا هو التاجر الحقيقي الذي يُحسن البيع والشراء، وهذا هو الذكاء بعينه! كما في سنن ابن ماجه: أن رجلاً سـأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي المؤمنين أكيس؟ قال: {أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم لما بعده استعداداً}[3]. إي نعم، تذكر الموت أكبر دافع للتميز في الدنيا.

ومـا مـن أحـد في هـذي الدنيـا إلا شـعر بنوبـة ضجـر وملـل في هـذه النقطـة -في هـذه الدنيـا-، كل إنسـان، العاقـل والجاهـل، لا بـد أن يشـعر بنـوع ملـل في مرحلـة مـا أو لحظـةٍ مـن حياتـه؛ لأنـه لا ينتمـي لهـذه الأرض ولـن يخلـد فيهـا، فتركيبـة جسـمه صُنعـت لـكي تعيـش حيـاة دائمـة في الخـط وليـس في النقطـة، فالجاهـل ينهـي حياتـه بسـوء، بتبعـات هـذا الضجـر والملـل، والعاقـل يدفعـه هـذا الشـعور بعـمارة مسـتقبله الحقيقـي، بـأن يعيـش في هـذه الدنيـا عـلى أحسـن طريقـة. ابـذل جهـدك ووسـعك في النقطـة بأفضـل وأحسـن مـا تسـتطيع لعـمارة الخـط الـذي لا ينتهـي، فالدنيـا قطـرة، والآخـرة بحـر لا سـاحل لـه[4]!. وأعظـم مـن هـذا كلـه، وأرفـع النـاس منزلـةً وأزكاهـم، هـو مـن جعـل غايتـه ليـس دخـول الجنـة فحسـب، بـل رضـا ربـه، وتعلـق قلبـه للمتنعـم والمتفضـل، فتلـك أسـنى وأمثـل المقامـات، مكانـة ورتبـة لا ينالهـا إلا صفـوة الصفـوة وأعظـم النـاس حظـاً؛ لأنـه في عـالم آخـر، لا يمكننـا قيـاس سـعادته ولا مقـدار راحتـه لا في الدنيـا ولا في الآخـرة!.

إذا عرفـت أن الدنيـا نقطـة، وأن الآخـرة خـط لا نهايـة لـه، وأدركـت هـذي المقدمـة الذهبيـة اسـترحت مـن آلاف المشـاكل في حياتـك، وسـتحرص عـلى النجـاح والفـلاح [5]، وسـتطمئن طمأنينـةً لا مثيـل لهـا!.

وليُقسْ ما لم يُقلْ

(1) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ «. رواه مسلم (2807)، ورواه أحمد وابن ماجه. وقال الحسن البصري: «كُلُّ نَعِيمٍ زَائِلٌ، إِلا نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَكُلُّ غَمٍّ زَائِلٌ، إِلا غَمَّ أَهْلِ النَّارِ». المجالسة وجواهر العلم (4/ 364).

(2) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (2956)، ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(3) رواه ابن ماجه في كتابه السنن (4259).

(4) قال الله تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة الأعلى : 16-17]، وقال تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت :64]، وقال تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الأنعام :32]، وقال تعالى: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} [سورة محمد : 36]، وقال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} [سورة الحديد : 20]، كل هذه الآيات تدل على أن الحياة فتنة ومعبر واختبار، ويتفق كل الناس يوم القيامة أن الدنيا لهو ولعب وأنها لا شيء يذكر مقارنةً بالآخرة!

(5) حياة الذكي العاقل تكون بعد الموت، وحياة الجاهل تكون قبله، وكلٌ يعمل لحياته! والعقلاء قاطبة متفقون على استحسان إتعاب النفوس في تحصيل كمالاتها.

المقدمة الثانية: أوامر الخالق أولى من أوامر غيره (تحقيق الأماني ليس مطلباً)

كل عالِم، في كل فنٍ وعلم وفي أي تخصص، يستعين بعلم من سبقه ويبدأ به، ولا يُتصور أن باحثاً أو عالماً بدأ بنفسه دون علم من سبقه، لا يوجد هذا البتة في كل العلوم!

وكلما استوعبت أكثر وأحطت بالمعلومات المتعلقة بعلمٍ ما أو مسألةٍ معينة، كنت أقرب إلى الحق.

وكلما كان الأمر الذي تريد إدراكه عظيماً زادت أهمية المعلومات[1] التي تستند عليها وشموليتها لهذا الأمر.

بعض البشر كإسحاق نيوتن وغيره وضعوا نظريات بناءً على معلومات جمعوها فصدقهم أكثر الناس، وبعد مدة من الزمن خالفهم علماء آخرون، مثل مفهوم الحركة عند نيوتن، جاء ألبرت آينشتاين وقال إنها غير صحيحة بناء على النظرية النسبية العامة لآينشتاين، ومثل هذا كثير.. يقول فيزيائيون أو أطباء أمرا في زمنٍ ما ثم يتراجعون عنه بعد مدة! ولكن ماذا سيحصل عندما يعرف فيزيائي أو طبيب أو أي عالم في أي علم مجريات الأحداث وبداياتِها والتغييراتَ التي طرأت عليها ونتائجَها منذ خلق آدم أولِ البشر إلى آخر عمر البشر على هذه الأرض وعلِمَ ما يكون من أمر البشر وتعاطيهم للأحداث وما يصلح لهم وما لا يصلح لهم والإخفاقات وأسبابها وعللها؟ ماذا سيحدث لأحكامه التي سيصدرها ونظرياتِه التي سيطرحها؟! مهلاً مهلاً! هل يوجد شخص ما يمكنه أن يطّلع على تسلسل الأحداث ومجرياتها من عصر آدم إلى آخر الزمان ويطّلع على بداية نشوء الأفكار وكيف يتعامل الناس معها وكيفيةِ تغييرها وتطورها ونهاياتِها ونتائجِها؟! يا إلهي! لو وُجد شخص عنده هذا الكم الهائل من المعلومات فلن يخطئ في أي معلومة أو قانون سيُصدره! في الحقيقة يوجد شخص بهذه الصفة الخارقة، يوجد شخص عرف تسلسل الأحداث ومجرياتِها من آدم إلى آخر الزمان، إنه القائل: {مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ}[2]. ومع هذا فكل الكلام الذي يقوله هذا الرجل ﷺ ويشرّعه، هو من عند الخالق الذي خلق كل شيء، الذي خلق الأسباب ومسبباتِها ونتائجَها؛ فالذي صنع الأشياء هو أَخبرُ من غيره بها، هو الذي يعرف نقاط القوة والضعف لأنه الصانع! ولا شك ولا ريب، الصانع أدرى بما صنع!. لهذا، الإسلام بنى أحكامه على نتائج الأشياء، فحياتنا لا تكفي لتجربة كل شيء، نولد في نهايات أحداث ونموت في بدايات أحداث أخرى، وتحورات الأفكار وتحولاتُها تكون على مدى مئات السنين! فلا يمكنك أن تقترح على الناس فكرة ناسبت أحوالك ومجتمعك وطبقتها في عشرين أو خمسين سنة، ثم تقول للناس: «هذا هو

(1) قدّس العلم، لا تقدس الأشخاص؛ فتعظيم الأشخاص أكثر من العلم يُعمي عن تأمل الحق في نفسه! وهذا الأمر مبسوط في المقدمة الرابعة.

(2) رواه البخاري [86] وفي غير موضع، ومسلم [905].

السبيل الأمثل بناءً على ما جربته بنفسي ورأيته بعيني فقط!» كلا؛ لأن للعقائد والأفكار عمراً أطول من عمر البشر، فقد يصلح لك ما لا يصلح لغيرك، والعاقل من اعتمد على الأكثر علماً وخبرةً {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}[سورة الأعراف: 54]، هو الخالق، إذاً هو العالم بما خلق، وهو الآمر، كما أن رأي كبير السن يكون أصوب من رأي الشاب لطول خبرة كبير وزيادة علمه -غالباً-. ولا أعقلَ ممن يعتمد على من لديه العلم المطلق -سبحانه-

ولا أجهل ممن يصادم بعلمه وعقله أحكام صاحب العلم المطلق الذي علّمه بعض العلم ليختبره. حقاً، الاستكبار لا يليق بالباحث عن الحق، كل العلماء في العلوم كافة، يتواضعون للمعلومات ولا يستنكفون؛ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ * تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الأعراف: 54].

الأحكام التي وجهنا الله لها، فيها الخير والفلاح لنا، حتى لو لم ندرك بعقولنا الحكمة والخيرية فيها؛ فعقولنا محدودة القدرات والفهم والإدراك، كباقي حواس الإنسان لها حدود، سمعك له حدود، بصرك له حدود، جسمك له حدود، عقلك كذلك له حدود، وعلم الله مطلق لا حدود له! لذلك أحكامه هي الأصلح لنا[1] ﴿وَلَتَعلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعدَ حِينِ﴾[سورة ص: 88].

وشطر هذه المقدمة المهمة أن تعلم أن من أعظم الأخطاء وأكبر المصائب في كل فن وعلم، أن يتناوله الإنسان دون تدرج، في كل علم، في الفيزياء وفي الطب وفي كل العلوم، فمثلاً: علم الشريعة، يخطئ في الحديث عنه كثيرٌ من الدعاة، ولا يقدمون ما قدمه الله ولا يؤخرون ما أخّره الله، أوامر الله تتفاوت، أوامر الله ليست على درجة واحدة في التبليغ، وليست على درجة واحدة في النصرة والتطبيق، الأولويات، الأهم فالأهم، ما الذي قدمه الله وما الذي أخّره؟! كثير من المجتمعات ينتشر فيها بعض مظاهر الإسلام، لكنها مخالفة لهدي الرسول ﷺ، ما الذي قدمه الرسول ﷺ ؟ التوحيد. مكث أكثر من عشر سنوات يقرر التوحيد، بل ولم تشرع الصلوات الخمس حتى في هذه المدة، أكثر من عشر سنوات! الصلاة عمود الدين لم تفرض بعد؟ نعم، الصلاة لم تُفرض لأكثر من عشر سنوات؛ لأن هناك ما هو أكثر أهمية! فلا معنى للصلاة إذا فُقد ما هو أهم وأعظم من الصلاة، وهكذا بقية شُعب الإيمان، مهم جداً هذا الشيء. قدّم ما قدمه الله ورسوله ﷺ، وأخّر ما أخره الله ورسوله ﷺ، فإن اختلّت الأولويات هَدَمتَ الدين من حيث لا تَشعُر! ويلعب على هذا الوتر كثير من الحكام المنتسبين للإسلام، يُظهِرون نُصرة الإسلام في بعض شرائع الدين[2]، لكنهم يحاربون ما هو أهم وأعظم! مثل ما فعل المنافقون في زمن الرسول ﷺ لما بنوا مسجد الضرار، يقولون بفعلهم: «انظروا نحن نهتم بالمساجد!» لكنهم يكذبون، يهدمون بهذا المسجد المعاني الكبرى في الإسلام! ككثير من الحُكام في زماننا، يدّعون نُصرة الإسلام في بعض المواطن وهم يحاربون ويدفعون المليارات لهدم ما هو أعظم وأهم!.

ويُعينهم في هذا الدعاة المخطئون الذين يسيرون في المساحة التي سَمَحَ لهم بها هؤلاء الحكام الظلمة[3]، فيظنون أنهم ينصرون الله، هؤلاء الدعاة يظنون أنهم ينصرون دين الله بالتحدث في المساحة التي سُمح لهم الحديث فيها، الذين يمشون سبهللاً، ويظنون أنهم ينصرون دين الله، ولكنهم في الحقيقة ينصرون دين هؤلاء الحكام الذي لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ.

قال الله تعالى: { قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [سورة الطلاق: 3]، كل شُعبة من شُعب الإيمان لها قدر ومنزلة محددة، لا تعطينها أكبر من قدرها فتتشدد، ولا تُهوّن من قدرها فتكون متساهلاً! لا إفراط ولا تفريط،

(1) حوادث الكون تدل على صدق الوحي، ولكن عمر الإنسان قصير عن رؤيتها، يولد في نهاية أحداث ويموت في بداية أحداث أخرى فيجهل حكمة الله فيعاند ويكفر! فالوحي عقلٌ من الخارج والعقل وحيٌ من الداخل.

(2) يريدون من الإسلام أن يكون اسماً لا معنى ، ودعوى وهوية لا عمل، مثل قريش كانت تُعظّم إبراهيم وتضع له تمثالاً ولما دعاهم النبي ﷺ إلى دعوته قاتلوه.

(3) تحقيق الأماني في الدنيا ليس مطلباً، بل المطلوب اتباع أوامر الله وإن خالفت أمانيك الدنيوية.

قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49]، وقال تعالى: {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [سورة الطلاق: 3]، وقال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: 8]، فلم يتحدث الرسول ﷺ في مجتمع مكة عن الخمر مثلاً، ولا عن كثير من الأخطاء إلا بعد أن تحدث عن المسائل الأهم؛ فأوامر الله ليست على درجة واحدة، والمجتمعات الآن ليست على درجة واحدة أيضاً، فلا يمكن أن تُخاطب مجتمعاً ما بنفس خطابك وأولوياتك مع مجتمع آخر يختلف عنه، فالمطلوب هو الانتصار لأوامر الله وليس الانتصار لعاطفتك، فلا تقدم وتعظم شيئا من دين الله لأجل عاطفتك وتغير من مكانتها في الإسلام وفي نفوس الناس فتُشوّه ترتيب أولويات الدين، وتكونَ ممن يبغونها عوجاً! هذي مصيبة متكررة في الأمم السابقة أيضاً، تحريفُ دين الله ببعض دين الله، هدم ومحاربة الإسلام يقال الله وقال رسوله ﷺ! مثل ما بنى المنافقون مسجد الضرار ليحاربوا رسول الله ﷺ، فلم يصلِّ فيه الرسول ﷺ، ونهاه الله أن يصلي فيه[1]، مسجد يهدم ويحارب الإسلام؟ نعم. مثل الحكام الظلمة {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[سورة التوبة: 107-108][2].

لهذا، إذا طبقتَ أوامر الله على غير طريقة الرسول ﷺ، فإنك ستهدم ولا تبني[3]، فانصر دين الله كما فعل الرسول ﷺ، ولا تتبع سبيل المفسدين!.

ومن المعلوم أن أعظم البشر حقاً عليك، الوالدان [أمك وأبوك]، أعظم حقاً من الحاكم أيضاً، ومع هذا لو خالف أمرُهم أمرَ الخالق فإن أمر الخالق هو المقدم؛ لأن فيه صلاح الوالدين أكثر مما يريدون، أكثر مما يريدون هم، وفيه صلاحُك وما هو أبعد من هذا!.

لأجل هذا قال ﷺ: {لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ}[4].

وقد تحتقر جهل الطفل لأن بينك وبينه سنوات علمتك ما يجهله هذا الطفل، هذا وبينك وبينه سنوات من العلم، فكم بين علمك وعلم من خلقك؟!

وليُقسْ ما لم يُقلْ

(1) قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [سورة التوبة: 107-108]

(2) وتتكرر أفعال المنافقين عبر العصور كما أخبر عنهم الله في القرآن، فلا يستطيعون إخفاء نفاقهم!.

(3) عبد الرحمن بن عوف قال: «حرست ليلةً مع عمر بن الخطاب بالمدينة إذ تبين لنا سراجٌ في بيت وفيه أصوات مرتفعة ولغط. فقال عمر: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن سكارى فما ترى، قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه {وَلَا تَجَسَّسُوا} وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم!». حديث صحيح، رواه الحاكم (4/ 419)، والبيهقي والطبراني وغيرهم.

(4) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده (1095). وانظر صحيح البخاري (7145)، وصحيح مسلم (1840).

المقدمة الثالثة: الكثرة -الشهرة- ليست دليلاً على الحق

قبـل خمسِـمئة سـنة كان أكـثر النـاس يقولـون: إن الأرض مسـطحة وليسـت كرويـة، ومـن يقـول: إن الأرض كرويـة، يُضحـك عليـه! وبعـد مـدة مـن الزمـن، صـار أكـثر النـاس يقولـون: إن الأرض كرويـة، ومـن يقـول: إن الأرض مسـطحة، يُضحـك عليـه!.

الحـق لا يُعـرف بالعـدد ولا بالأكثريـة، فلـكل زمـنٍ أكثريـةٌ تـرى رأيـاً يختلـف عـن رأي أكثريـةِ الزمـنِ الآخـر[1]، والحـق لا يتقلـب بحثـاً عـن الأكـثر؛ لأن الحـق معنـى مسـتقل بذاتـه لا يُنسـب إلى جماعـةٍ أو شـخصٍ بعينـه، فقـد وُجـد أنبيـاء دعـوا أقوامهـم للسـلام وإلى رفـع الظلـم، فـما اسـتجاب لهـم أحـد، وماتـوا وهـم منصـورون والحـق معهـم وهـم قلـة في زمانهـم؛ لأن الحـقَ حـقٌ ولـو لم يتبعـه أحـد، والباطـلُ باطـلٌ ولـو اتبعـه أهـلُ بلـدك كلُهـم!.

لنذهـب جميعـاً وننظـر ونتأمـل في حـال البشريـة وقـد اجتمعـت كلُ البشريـة يـومَ يكـثر الغـبن والقهـر والنـدم في هـذا اليـوم، الآن أمامنـا كل البـشر مـن آدم إلى آخـر مـن مـات في هـذي الدنيـا، هـم مجتمعـون الآن ينتظـرون الحسـاب، إنهـم ينقسـمون إلى مجموعـات، كل مجموعـة فيهـا ألـف شـخص، يـا لهـا مـن مجموعـات كثـيرة لا يحصيهـا إلا اللـه ! شـخص واحـد فقـط مـن المجموعـة الأولى يدخـل الجنـة وتسـعمِائة وتسـعة وتسـعون يدخلـون النـار؟ أكثريـة المجموعـة الأولى في النـار وشـخص واحـد فقـط يدخـل الجنـة؟ يـا للهـول! المجموعـة الثانيـة تتقـدم، يخـرج منهـا شـخص واحـد فقـط ويدخـل الجنـة والبقيـة يدخلـون النـار، أكثريـة المجموعـة الثانيـة كذلـك دخلـوا النـار، لا إلـه إلا اللـه! كل المجموعـات الباقيـة يحـدث معهـا نفـسُ الشيء{مـن كل أَلْـفٍ تِسْـعَمِائَةٍ وَتِسْـعَةً وَتِسْـعِينَ يدخلـون النـار![2]}.

---

(1) المُصلحـون يغتبطـون ويُنعَّمـون بكـثرة أتباعهـم في الآخـرة، والمُضلّـون يتحسـرون ويُعذّبـون بقـدر أتباعهـم ويتمنـون لـو قلّـوا الأتبـاع إمـا نقمـة وإمـا نعمـة، فإبليـس أكـثر أتباعـاً مـن الأنبيـاء، فتابـع واحـد عـلى الحـق خـيرٌ مـن ملـء الأرض عـلى الباطـل!.

(2) جزء من قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري (3348)، ومسلم (222).

بهذا المشهد وهذا المصير وهذي النتيجة عليك أن تنظر إلى ما يحدث في الدنيا، البس هذي النظارة وتأمل كل خطوة تخطوها في حياتك، بهذي الأحداث والنهاية عليك أن تنظر لكل ما يحصل حولك في كل شؤون وأمور الحياة، تأمل حال الأكثرية في كل بلد وفي كل زمان ومكان، إن أكثرهم لا يعقلون، إن أكثرهم يجهلون، إن أكثرهم للحق كارهون، أكثرهم لا يؤمنون، أكثرهم لا يفقهون.

نعم، أكثر الناس كأسراب القطا، أكثر الناس لا يحب الشر ابتداءً، لكن إذا رأى غيرَه يفعله فإنه يتابعه ويفعل الشر استئناساً بغيره، فيُحشر التابع والمتبوع ويلقون نفس المصير، قال تعالى: {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: 38] ، وقال تعالى: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[العنكبوت: 26][1]، كانوا في الدنيا يأنفون من إقامة العدل ويستكبرون ويعينون الظلمة ويحاربون من يقيم العدل ويدعو إليه!.

المشهور[2] إذا قال كلاماً فلا يعني أن قوله حق لأنه مشهور، ففرعون كان أكثر الناس شهرةً في مجتمعه وتحت يده المشاهير الذين يتحكمون بالإعلام في زمانه ويوجّههم بما شاء وهو على باطل، فلا تعني شهرته وشعبيته وسيطرته على الإعلام أنه صادق وعلى صواب! كلا، وكذلك الأكثرية إذا قالت شيئاً، لا يعني أن قولهم حق لأجل عددهم وكثرتهم؛ فإبليس أكثرهم أتباعاً يوم القيامة وهو على باطل، والأنبياء -وهم على الحق- أقل الناس أتباعاً وهم المنصورون.

الحق لا يُعرف بالعدد ولا بالرجال، بل الحق يُعرف بنفسه مجرداً عن المؤثرات. ابحث عن الحق بعيداً عن ضغط الواقع ورأي الجماهير، ابحث عن الحق من مصادره الصحيحة وبحُجَجٍ تثبت أمام النقد وتتجاوز كل شك وتأويل، فأكثر الناس حياتهم مبنية على الظنون، قال تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا} [سورة يونس: 36] ، يكونون مع الجماهير أينما ذهبوا!.

لا تجعل عقلك وجسدك أسيراً للجماهير والحشود، قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف: 103] ، وقال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [سورة يوسف: 106] ، ولا تكن أسيراً للظنون، قال ﷺ: {إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث}[3].

فأكثر الناس تسوقها الحمية والعاطفة، فيتبعون من يحبون ويخالفون من يكرهون، ولهذا تكون أكثرها ندامات في الحياة الحقيقية، قال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} [سورة البقرة: 166]، وما ينفعهم حينها أي نقاش أو خصام! فإن الله يقول لهم في ذلك الموقف: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} [سورة ق: 28] ، لنحرص أن لا نكون منهم.

فإن أسوأ موقف قد يحصل هو أن يقف الإنسان بين يدي ربه ويذكّره اللهُ بأوامره ونواهيه في القرآن والسنة، ثم يعترف الإنسان أنه اطلع عليها لكنه يقول: هكذا كان يقول أكثر الناس في مجتمعي[4] فاتبعتهم دون استعمال عقلي!.

---

(1) ويقع بعض أهل الحق في فخ الإعجاب بالكثرة فيفرحون بعددهم وليس بالحق الذي معهم، وهذا خطأ عظيم، قال تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً} افرح بالحق الذي معك، لا بعدد من معك!.

(2) في الأرض.

(3) رواه البخاري (6066) ومسلم (2563).

(4) كرّمك اللهُ بالعقل، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ} [سورة الإسراء: 70]، وأكثر أهل النار هم الذي اعتمدوا على عقول غيرهم دون غربلة وتثبّت، كما بيّنت الآيات والأحاديث.

يحكّمك الله إلى عقلك[1] وجهدك ولن يقبل منك الإحالة إلى أحد، قال تعالى: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ} [سورة ق: 28] ، فاستعن بالله ثم اجتهد بعقلك وابحث عن الحق واتبعه ولا تنتظر رضا الناس!.

إذا رضيَتْ عني كرامُ عشيرتي فلا زال غضبـــاناً عليَّ لئامُها

وقتك ثمين، وقتك ثمين.

لا تهدر وقتك وتأخذ تعاليم الإسلام من رجالٍ لن تُسأل عنهم يوم القيامة، قال تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [سورة ق: 28] ، ماذا أجبت الرسول ﷺ؟ ولن يقال لك: ماذا أجبت فلاناً؟ أو ماذا أجبت مجتمعك؟.

ومن عطّل عقله عن معرفة الحق فهو يشارك الدواب في صفاتها[2]، قال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} [سورة الأنفال: 22].

وليُقسْ ما لم يُقلْ

(1) الإسلام عظّم العقل وكرّمه، وجعله كالبصر مع النور، ومن سار في نور بلا بصر فقد ضل، ومن سار ببصر بلا نور فقد ضل أيضاً!.

(2) كل حواس الإنسان الخمس تتفوق فيها عليه البهائم لكنه يتغلب عليها جميعها بواحد ألا وهو العقل، فإن ضيعه غلبته البهائم، قال تعالى: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الأعراف: 179].

المقدمة الرابعة: الحق شيء وأهله شيء آخر(الحق يؤخذ من أي أحد)

يقول إن اثنين زايد اثنين يساوي أربعة. من يقول هذا؟ صديقي أم عدوي؟ شخص أحبه أم شخص أكرهه؟ أبي؟ أمي؟ أستاذي؟ لا فرق، فالحق حقٌ ولو نطق به أي أحد، حتى لو نطق الشيطانُ بالحق فإننا نقبل الحق منه لأنه حق، وليس لأن قائله فلان أو شيطان! كما أخذ أبو هريرة -رضي الله عنه- من الشيطانِ فائدةَ قراءة آية الكرسي قبل النوم وأنها تكون سبباً في حفظه، كما في صحيح البخاري[1]، فقال ﷺ لأبي هريرة: {صَدَقَكَ وهو كَذُوب} الكلام حق لكن القائل من أهل الباطل، فرق بين الحق وأهل الحق، أهل الحق شيءٌ، والحق نفسه شيء آخر، وكثير من الناس يقع في كثير من الأخطاء والمزالق لأنه لا يفرق بين الحق و أهل الحق!.

فلو كنت مصطفّاً في خندق أهل الحق فلا يعني أن كل ما تقوله حق؛ لأن الحق يُعرف بنفسه، بمصادره وبذاته.

وقد يُخطئ بعضُ أهلِ الحقِ في أقوالهم أو أفعالهم، وليس هذا ذنب الحق؛ لأن الحق معصومٌ ولا يعتريه أي خلل، إنما البشر من أهل الحق قد يخطئون، فلا تتهم الحق لأجل أخطاء بعض الناس، فلا أحد من الناس بينه وبين الحق نسب أو قرابة، فالحق معنىً مستقلٌ لا يُنسب لأحد من البشر. وكثير من الناس تركوا الحق بسبب أخطاء بعض الناس، مجموعة كبيرة ممن اتبعت الرسول ﷺ تركت الحق عند وفاة الرسول ﷺ؛ لأنهم كانوا يتبعون أهل الحق، يتبعون شخص الرسول ﷺ، ولا يتبعون الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، فلما مات الرسول ﷺ ظنوا أن الحق قد مات! فلم يفرقوا بين الحق وأهل الحق، فالبشر يموتون، لكن الحق لا يموت، الحق لا يموت ولا ينسب لزمانٍ أو مكان معين، ومعنى مستقل لا ينسب إلى المكان، وقد حذا حذوهم بعض الناس في هذي الأزمنة المتأخرة، لما رأوا أن عالِماً من علماء المسلمين قد مات، تركوا الحق، وهؤلاء لم يكونوا يتبعوا الحق، بل كانوا يتبعون أشخاصاً من أهل الحق!.

(1) القصة في صحيح البخاري (2311).

فلا تتبع أحدا بعينه كائناً من كان، بل اتبع الحق الذي لا يتغير، فالناس كلهم معرضون للتغيير، لكن الحق لا يتغير أبداً.

وأحياناً يكره بعض الناس شخصاً معيناً فيكرهوا الحق الذي معه بسبب كرههم لشخصه، أو يحب شخصاً ثم يبحث عن الأدلة والبراهين لموافقته، أو يكره شخصاً ثم يبحث عن الأدلة والبراهين لمخالفته، فهؤلاء لا ينتصرون للحق أبداً، بل ينتصرون لشيءٍ في نفوسهم لا علاقة له بالحق!.

لا بد أن تفرق بين الحق وأهل الحق، ثم تقرأ وتبحث بنفسك، فرّق بين الحق وأهل الحق ثم اقرأ، ابحث، تحقق، راجع، تثبّت، ثم طبّق؛ حتى لا يكون موقفك مخزياً[1] في الدنيا وفي الآخرة!.

هل لنا أن نتصور أن هناك مجتمعاً رفضوا الحق وقالوا لصاحب الحق: {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا}[2] [سورة هود: 27] ، يعني: الناس الذين اتبعوا الحق معك ليسوا من عظمائنا ولا من ساداتنا ولا من الأغنياء، بل من الضعفاء والفقراء[3]، سبحان الله! ما علاقة أتباع الحق في الحق نفسه يا قوم؟ فرق بين الحق نفسه وأتباع الحق، هذا شيءٌ وذاك شيءٌ آخر.

في كل زمن تجد أناساً من المنافقين يُظهرون خلاف ما يبطنون، ينفقون إلى أهل الحق، يحشر نفسه بينهم ليستطيع اختراق صفوف أهل الحق، فيبُثّ للناس أموراً باطلة، لكنها في لباس أهل الحق -فيما يبدو للناس-، فيتبعه كثير من الناس؛ لأن أكثر الناس لا يتبعون الحقائق، بل يتبعون من يكون موصوفاً بأنه من أهل الحق، وفي خندق أهل الحق، فيقولون: لا شك عندنا مما يبدو لنا أن كلامه حق، لأن لبسه وهيأته ومكان وجوده يدل على أنه من أهل الحق، فكلامه إذاً حق وصواب! ينخدعون بهذا الكذاب ويتبعونه.

ولهذا يسهل عليك أن تعرف المنافق من الناس، بأن تجرد أقواله وتفصفصها وتغربلها وتتأملها مجردةً من كل المؤثرات المتعلقة بها؛ لأن الحق يُعرف مجرداً كما أن الباطل يُعرف مجرداً كذلك، فافحص أقواله وأدلته التي قالها وانزع عنها قداسة ولباس أهل الحق ومكانتهم، لتنكشف لك الأمورُ ظاهرةً جليةً، لأن المنافقين كثيراً ما يستعملون الدين[4]، يستخدمون ما يشتهون من الدين لهدم الدين، كبناء مسجد الضرار، مسجد؟

يحارب الإسلام ببناء مسجد؟ نعم.

قد يكون هدم الإسلام ببناء مسجد، كما قد يكون باستعمال الآيات والأحاديث[5] إذا استُعملت لغير ما أُنزلت من أجله، وهذا ما يفعله كثير من العلماء في إعلام الظلمة المحارِب للإسلام!.

فلا تتبع قول أحد لأنك تحبه، ولا تخالف قول أحد لأنك تكرهه، حب الأشخاص وكرههم حاجزٌ يحجزك عن تأمل الأقوال والأفكار في نفسها.

واعلم وتيقّن أن كل حق لا بد أن يلحقه تشويه، وكل باطل لا بد أن يلحقه تزيين، يعني إذا قلت للناس: هذا باطل وشر تعالوا واتبعوه، هل سيتبعونه؟ هل فعل أحد هذا من قبل؟ إبليس ما فعلها، إبليس نفسه ما يقول لأحد: هذا شر تعال واتبعه! بل يزين باطله ويزخرفه[6]، مثل فرعون زعم أنه يحارب ويواجه الفساد وهو أكبر مفسد في زمانه ومحارب للعدل ولمن يدعو للعدل والحق!.

---

(1) أكثر ضلال الناس بتقليد الكبراء ومسايرة الواقع بلا تفكّر وتدبر؛ قال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا} [الأحزاب: 67].

(2) العجيب أنهم قالوا لنوح عليه السلام: أنت بشر مثلنا، ثم جحدوا هذه الصفة المشتركة بينهم وبين الضعفاء الذين اتبعوا نوحا عليه السلام!.

(3) الحق لا يُعرف بالمظاهر ولا بإمكانات أهله، فقد ظنّ كفار قريش أنهم على حق لأن مظاهرهم أحسن من أصحاب النبي ﷺ، {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم: 73].

(4) وسائلهم كثيرة متعددة، منها أن يقولوا: {آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ واكفروا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران: 72].

(5) قال تعالى: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً} [سورة المائدة: 68].

(6) أعظم مُهمة عند كل حاكم ظالم: أن يُشغل الناس بتتبّع الأخبار «المنتقاة بعناية» كما يشغلهم بالترفيه أو باختلاق الأعداء؛ لأنهم لو تركوا للناس وقتاً للتفكير في واقعهم بجدية وتجرد، لكان هذا سبباً في استيقاظ الشعوب ومطالبتهم بالعدل الذي لا يرضاه الظالم! فكل حادثة أو شخص يشتهر عند الناس، فإن هذا الظالم يستغله ويحرص على تبنّي هذا الشخص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ليخدم توجّهاته وليكون مشاركاً في منظومة الظلم والبطش باحترافية عالية وتدليس لا مثيل له.

وهكذا كل دعوات الباطل يزينونها لك ويزخرفونها لك، لتبدو وكأنها حق، فلا تنخدع، وغربل كلامهم ودعاويهم وأدلتهم لتتبين الحق من غيره بعقلك أنت، ولا تعتمد على عقل غيرك.

ابحث بنفسك واستعمل عقلك حتى لا تندم فيما بعد، فقد ورد الأمرُ بالتفكر ولفظُ العقل ومشتقاتُه ومترادفاتُه في القرآن والسنة مئات المرات، لهذا قد يكون التفكر لساعة خيراً من قيام ليلة كاملة[1]!.

لهذا ينبغي أن يقول أهل الحق: لا تتبعني، قد أتعثر، ولكن شاركني ولنتبع الحق وننصره؛ لتُحل أكثرُ مشاكلنا التي تحول دون تحقيق العدل في الأرض، ولكي تندثر الجماعات والتحزبات، ويكون التعصب للحق، لا لأهل الحق المتفرقين.

وليُقسْ ما لم يُقلْ

(1) أَبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ». كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (ص114).

المقدمة الخامسة: الإمكانيات والتأثير (حلف الفضول)

رسول الله ﷺ جالس في مكة وهو ابن عشرين سنة، وحوله المشركون.

هذا شخص زُبيدي جاء لمكة، رجل من زُبيد أتى من اليمن، يبيع العاصَ بن وائل السهميَ بضاعة.

اسمعوا لهذا العاص بن وائل وهو يقول: «سأعطيك مالك غداً»، يمر اليوم واليومان والثلاثة، الرجل يطلبه وهذا الكذاب الجاحد يماطله، ماذا يفعل هذا الزبيدي؟ ماله إلا حل واحد، يقف على جبل أبي قبيس وينادي أشراف مكة من آل فهر، هذا أفضل حل ليعيد له العاص بن وائل بضاعته! وفعلاً يقف بنو هاشم وبنو زُهرة وبنو تيم بن مرة، ويصيح الزبير بن عبدالمطلب: «ما لهذا مترك» لا بد أن ننصره ونعينه، استنصرهم فلبّوا نداءه، اجتمعوا في دار عبدالله بن جُدعان فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه، كفار مع الرسول ﷺ، مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزُبيدي، فدفعوها إليه، هذا الذي كان في حدود قدرات وإمكانيات الرسول ﷺ، أن يتعاون مع مشركين لرفع الظلم. ولكن مهلاً، هذا حصل ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، أي: قبل أن يُبعث ويكون رسولاً، نعم ولكن الرسول ﷺ بعد أن بُعث وشُرعت الشرائع وأقام العدل في مكة وما حولها ورفع الظلم قال: {لقد شهدت مع عمومتي حِلفا في دار عبد الله بن جدعان، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْر النَّعَم وأَنِّي أَنكُثُه}[1]، وقال ﷺ: {أَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّة}[2]، المراد: المعاقدة على الخير ونصرة الحق، فإذا كان ثمة حلف في الجاهلية يعين على الحق وإقامة العدل ورفع الظلم فإنه مشروع في الإسلام فتمسكوا به؛ لأن الله ما خلق الخلق إلا لإقامة العدل ورفع الظلم. الرسول تعاون مع المشركين لأن هذا هو الذي كان في حدود إمكانياته وقدراته، وهكذا كل إنسان، كل إنسان مأمور بالعمل مهما اشتدت الفتن والظلمات، فلا يجوز أبداً أن يقعد مكتوف اليدين، بل عليه أن يعقد العزم

(1) رواه أحمد في مسنده (1655)، وغيره. وعند البيهقي قال: {لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ}. السنن الكبرى للبيهقي (13080).

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه (2530).

والنية ويستعمل ويستفيد من كل ما حوله لرفع الظلم وإقامة العدل واتباع أوامر الخالق، فإنه يبلغ بنيته أعلى الدرجات وإن لم يبلغه بعمله؛ لأن هذا هو المعيار عند الخالق.

هذا عمار بن ياسر رضي الله عنه، يقول له الرسول ﷺ: {تقتلك الفئة الباغية}[1].

ماذا فعل عمار رضي الله عنه؟ جلس وقال سأنتظر موتي؟ كلا!.

كل مصلح لا بد أن يتعرض للأذى في طريق دعوته، فالصادق تزيده المصائب ثباتاً على الحق.

حتى لو كنت في آخر لحظات عمر الأرض، وتأكدت أن الحياة على هذه الأرض ستنتهي، عند قيام الساعة، انتهى عمر الأرض، لن تستطيع العيش إلى يوم غد! ماذا نفعل حتى في هذه اللحظات؟ علينا أن نعمل ونجتهد، نعم.

الإسلام يأمرنا بالاجتهاد والعمل حتى في نهاية لحظات عمر الأرض، ولو كان ظاهراً لك انعدامُ الفائدة من عملك، أنت مأمور بعمارة الأرض على أفضل حال وأحسن طريقة، هذا هو الإسلام[2].

قال رسول الله ﷺ: {إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ، وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ}[3]، فليفعل! أمر يدل على الوجوب، غداً كلنا سنموت، أأغرس؟ ايه اغرس، اعمل، طور، حتى لو كنت متأكداً من عدم انتفاعك بهذا العمل في الدنيا، أنت مأمور بالعمل بكل ما استطعت وبكل ما تملك من إمكانيات[4].

الدنيا نقطة والآخرة خط لا نهاية له، نعم، العيش الحقيقي عيش الآخرة، ولا يتحقق عيش الآخرة إلا لمن اجتهد في عمارة الدنيا على أحسن حال، وكل من يقول غير هذا، فهو يكذب ويفتري على الإسلام، كما يدّعي بعض الجهال أن المطلوب هو التفكر في الآخرة وإهمال عمل الدنيا وعمارتها!.

الإكثار من ذكر الموت فائدته تكمن في الحث على الإتقان والإبداع في عمارة الدنيا بأفضل ما تستطيع، ولا يدل تذكر الموت على التوقف عن العمل عند العقلاء!.

وعلينا أن نعلم أيضاً، أن أزهد الناس في الدنيا هم الصحابة الذين عمروا الأرض بأفضل طريقة وكانوا مفاتيح لمن طوروا في الأرض من بعدهم وعمروها بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه، حتى أن الناس لم تعد تحتاج للصدقات فيرمى القمح في الجبال للطيور، حتى لا يقال: جاع طيرٌ في بلاد المسلمين!.

الزهد من أعمال القلوب، والجوارح عليها أن تعمر الدنيا وتسعى وتجاهد لإقامة العدل ورفع الظلم، مع تحقق الزهد في القلب، ولا يمكن أن يكون معنى الزهد أن تترك الدنيا ولا تعمرها، وتجلس في المسجد وتصوم وتزكي وتحج فقط! هذا ليس هو الزهد، بل ويخالف المنطق والإسلام! فلا يُتصور شرع فيه صلاح الآخرة دون صلاح الدنيا، هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً على الإطلاق.

فاجتهد مستعينا بكل ما حولك من إمكانيات وقوة وطاقة، استعملها ووظّفها في عمارة الأرض بالعدل ورفع الظلم، في أي أرض كنت ومع أي فئة كنت تعيش. اصدق النية واعقد العزم على الإصلاح وستجد في شرع الخالق ما يوجّهك للعمل بما أنت فيه من ظروف وأحوال، حتى لو يئست من تحصيل ثمرة العمل الدنيوية، اعمل،

---

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه (2916).

(2) الإسلام لا يعرف فصلاً بين الدين والدنيا، ويكفي أن يعلم الجميع أن أطول آية في القرآن لا تتحدث عن الطهارة ولا الصلاة، بل عن المال! الاهتمام بتوزيع المال توزيعاً عادلاً بين الناس من أعظم ما يعين على إقامة شعائر الدين واستقامة أحوال الناس في كثير من المشاكل والأزمات التي يعانونها! فالمال يعين على الزواج وتوفر السكن وعدم طلب الناس، كم من الناس يقع في المحظورات بسبب عجزه عن الزواج أو عجزه عن توفير مسكن له... والسبب: انعدام العدل في تقسيم المال!. الأوامر الربانية تحل جذور المشاكل.

(3) رواه أحمد في مسنده (12981).

(4) قال أصحاب الكهف المخلد ذكرهم في القرآن ثناءً: {وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً} لم يسألوا اللهَ التمكين؛ لأن الغاية الحتمية هي التقرب إلى الله بكل ما يستطيعون، أما التمكين فقد لا يكون غايةً حتميةً!.

وقال تعالى عن القيامة: {خافِضَةٌ رافِعَةٌ}، قال ابن عباس رضي الله عنه: «خفضت أقوامًا كانوا في الدنيا مرتفعين، ورفعت أقوامًا كانوا في الدنيا منخفضين». التوضيح لشرح الجامع الصحيح (23/ 352).

فالهدف الأكبر هو متابعة أمر الخالق، وعسى أن يحصل الثمرة الدنيوية غيرك، وثمرة الآخرة أكبر! ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فأكثر المصلحين في التاريخ كله لم يستمتعوا بثمرة إصلاحهم في حياتهم، وإنما يستمتع بها من خلفهم، لأن صفقتهم مع الله مؤجّلة الثمن في الآخرة لا في الدنيا، إنما المصيبة عندما يتوقف الإنسان ويقول: لا أستطيع أن أعمل شيئاً، وهذا أمرٌ استعاذ منه أفضل الخلق، استعاذ منه مرات عديدة. وقد تضطر للتعاون والتحالف مع جماعة تختلف معها لتحقيق العدل في الأرض، وهذا يعني أن التحالف والتعاون مع جماعةٍ ما لتحقيق مصلحةٍ ما لا يعني أنك تتفق معها في كل مبادئها ومعتقداتها، كلا، فالأحلاف لا تبنى على العقائد وإنما تُبنى على الحقوق والمصالح، وهذا مثل ما تحالف الرسول ﷺ مع مجموعة من الكفار التحالف المعروف بحلف الفضول، وهذه نقطة لا يعيها كثير من الناس، ولأجل أن تكون مؤهلاً لمعرفة متى يجوز لك أن تتحالف مع بعض الأعداء ومتى لا يجوز لك فيجب أن تكون حافظاً للقرآن الكريم، عالماً بتفسير كل الآيات ومدركاً لأقوال الصحابة في كل مسائل الشريعة، عالماً بأقوال تلاميذ الصحابة أيضاً، عندها تكون مؤهلاً لمعرفة وإدراك متى يحق لك أن تتحالف ومتى لا يحق لك أن تتحالف.

ومن أعظم ما ينبغي السعي له في زماننا وهو أعظم أنواع الجهاد في زماننا: السعي لإنشاء حِلف إعلامي عالمي حر مستقل يشترك في العلماء الربانيون من مختلف دول العالم مع غير المسلمين ممن يريد الإسهام لإقامة العدل، وهذا العمل يتطلّب جهداً وشجاعةً لا تقل عن الجهد والشجاعة المطلوبة للمقاتل بجسده في أرض المعركة، فالانتصار في معركة الأجساد مرهون بانتصارنا في معركة الوعي، كما فعل ﷺ في سيرته ودعوته. ولهذا تجد أن الأنبياء كلهم والصحابة كذلك اجتهدوا في عمارة الأرض وحسّنوا طرق العيش والسكن للإنسان واهتموا بتحسين أوضاع المعيشة وتطويرها، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ} [سورة يونس: 87]، أمر بالتدبير والاهتمام والاعتناء بدنيا الناس وإقامتها وتحسينها مع توظيفها لعبادة الله { تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ}، ولا يوجد نبي من الأنبياء إلا وأمر بالاهتمام بدنيا الناس وإقامة العدل وتحسين طرق العيش والحياة في الدنيا، كما أمروا تماماً بأمر الناس بعمارة الآخرة بالصلاة والزكاة وغيرها، ولا فرق بينهم في العمل.

ولا يُتصور عقلاً ولا شرعاً أن أحداً سيعمر آخرته دون صلاح الدنيا وعمارتها!.

وليُقسْ ما لم يُقلْ

المقدمة السادسة: الآلام ليست مقياساً

فطرةً، كل إنسان يحب السلامة واللذة ويكره الألم، كل إنسان.

وكل العلماء والعقلاء يتفقون على أن الذي يتعب قليلاً ليرتاح كثيراً، هو العاقل، في كل مجال وفي كل جوانب الحياة.

الذي يذهب للوظيفة أو للتجارة، يتعب ويكابد، لكنه يحصّل الراحة بعد هذا، وهذا محمود ومطلوب عند كل الناس[1]. فلا يمكنك أن تضحك أو تسخر من شخص يجتهد ويكلّف نفسه ما لا يطيق ويتحمل بعض الشدائد والمصاعب لكي يكسب من تعبه وعمله هذا!.

العاقل يتحمل الآلام في النقطة ليسلم في الخط[2]، والجاهل تكون السلامة واللذة مقصده في النقطة فقط، وقد يحصّلها في النقطة، لكنه يخسرها في الخط الذي لا ينتهي[3]!.

مر في التاريخ كثير ممن أرادوا الحصول على الراحة والسلامة واللذة في النقطة، لكنهم واجهوا المصاعب والمشاق في طريقهم، سجنوا أو طردوا من مجتمعاتهم أو ظُلموا أو شوهت سمعتهم واتهمهم بعض الناس، بل بعضهم خسر حياته، خسر حياته لكي يحصل على مراده في النقطة فحسب، تعب واجتهد وعانى لكي يرتاح في النقطة فقط! وهذا خسر النقطة والخط، ذلك هو الخسران المبين!.

ووُجِد في التاريخ كذلك كثيرٌ ممن أرادوا عمارة الآخرة بالإبداع والتميز في عمارة الدنيا، فأوذوا في النقطة، وكثير منهم قُتل في سبيل ذلك، لكنه ربح وفاز في الخط الذي لا ينتهي، فاز وضمن آخرته -مستقبله الحقيقي- وتحمل الآلام التي واجهها! فكن تاجراً ذكياً، اخسر قليلاً لتربح كثيراً.

(1) الأمور بمآلاتها، أكثر من يستمتع بالملذات [من جماع وشرب للخمر واستماعٍ لآلات اللهو والطرب واستمتاع بكل الملذات التي تخطر على قلوب البشر والتي لا تخطر -وهي الأكثر والأعظم-] هو المسلم ؛ لأننا بعد مرور أول مليار سنة بعد يوم الحساب ، سنلتفت كلنا -أهل الجنة وأهل النار- إلى الوراء لننظر من المستمتع الحقيقي بالملذات! ومن الذي يتقلب في النعيم أكثر! ومن الذي يشرب أنواعاً من الخمر مما لم يشربه أكثر البشر! ومن الذي أكل وشرب أكثر! ومن الذي يختلق سبلاً للعيش في رغدٍ ورفاهيةٍ لم يُعرف لها مثيل في التاريخ! ومن الذي يعيش بعيداً عن البؤس والفقر والأمراض والمصائب أكثر! فإننا سنعلم علم اليقين أن طالب السلام ورغد العيش والاستمتاع بالملذات في الحقيقة هو المسلم الذي يستحضر هذه المقدمة الذهبية وبقية المقدمات العشر!.

(2) تقرر في المقدمة الأولى أن الدنيا هي النقطة، وأن الآخرة هي الخط الذي لا نهاية له.

(3) يُحاول الإنسان أن يبني أفكاره ليستمتع أكثر ويتألم أقل، فأكمل الناس عقلاً من يتحمل آلام ومصاعب النقطة ليستمتع ويحصل على الأمن والأمان في الخط الذي لا ينتهي.

كل الفريقين واجهوا المصاعب في طريق إصلاحهم عبر الأزمان، على مر التاريخ كل الفريقين واجهوا المصاعب، من أراد إصلاح الدنيا لأجل الدنيا فقط، ومن أراد إصلاح الدنيا لأجل الآخرة كذلك، وهذا يدل على ايش؟ هذا يدل على أمر مشترك يتكرر على مَر الأزمان، وهو وجود أشخاص لهم نفوذ في زمانهم ومجتمعاتهم يحاربون كل من أراد أن يبدع أو يطالب بالعدل بين الناس.

كل أحد يدعو للعدل بين الناس، يواجهه أناس سيتضررون من العدل الذي سينعم به الناس؛ لأن تجارتهم ستتأثر وقد يخسرون، أو أن نفوذهم وحكمهم للناس أو مناصبهم ستزول، ولا يريدون لهذا أن يحصل، بل يريدون الاستزادة في كل شيء ولا يشبعون!.

فإذا علمنا أن الآلام والشدائد يواجهها كل شخص يطالب بالعدل بين الناس وإعطاءِ كل ذي حق حقه أياً كانت طريقته، سيواجه المصاعب والمشاق ولا بد، لا بد لهذا أن يُحارَب.

كل من أراد وناشد الإصلاح، من كانت طريقته صحيحة ومن كانت طريقته خاطئة، كلهم يتعرضون للأذى والمصاعب، من ابتغى الإصلاح في النقطة فقط ويطالب الناس بهذا حتى لو خسروا الخط، هؤلاء يتعرضون للأذى والمصاعب، الذين يؤثرون الحياة الدنيا، وكذلك من ابتغى إصلاح الآخرة بأن يصلح في الدنيا ويستعملها لعمارة الآخرة، فهذا أيضاً يتعرض للأذى والمصاعب، {ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا عودي}، هذي أول وصية سمعها أعظم مصلح مر على هذه الأرض، اللهم صل وسلم عليه، {ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا عودي}[1].

أعداء الحق والعدل يتألمون من مواجهتك لهم وجهادِك لهم بالحجة والبيان والقوة، قال تعالى: { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} [سورة النساء: 104]، فالظالم والمحارب للحق والعدل يتألم ومع هذا يتصبر ويتحمل الألم ليزداد في الظلم والشر، وهو على الباطل! { أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [سورة ص : 6]، عجباً! يتصبرون ويدعون أصحابهم للصبر والثبات على باطلهم لمحاربة الحق وأهله! ولكن شتان بين من يتألم وهو على الحق ومن يتألم وهو على الباطل، فالآلام وحدها ليست دليلاً على صحة وسلامة الطريق[2]. فالآلام لا يُستدل بها على صحة الطريقة والمنهج، فليس كل من صحت نيته صح عمله، وليس كل من تعرض للأذى في طريقه وحياته دل هذا على أن أفكاره ودعوته ومطالباتِه صحيحة، كلا!.

ولا شك أن الألم إذا لم يكن دليلاً على الحق، فاللذة كذلك ليست دليلاً على الحق، فقد تتألم من شيء وهو خير لك في مآله، فهذا مرغوب ومستحسن عند كل عاقل، وقد تتلذذ بشيء ومآله يكون شراً، وهذا مذموم ومكروه عند كل إنسان عاقل أيضاً. فليست كل لذة محمودة ولا كل ألم مذموم، فالأمور بمآلاتها. كل شيء تكمن قيمته في نتيجته.

لهذا عليك أن تبحث عن الحق مجرداً من كل المؤثرات، من الآلام واللذائذ المؤقتة الزائلة، جرد شعارات الدعاة من كل مذهب ودين، جرد عاطفتك ونظرتك للأشخاص الذين يدعون، انزع ألقاب القائلين وتأمل قولهم مجرّداً، جرّد الحجج والبراهين من كل ما حولها؛ ليتأملها ويتفحصها عقلك حق الفحص[3].

---

(1) أول وصية سمعها الرسول ﷺ هي وصية ورقة بن نوفل -رحمه الله- : {ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا عُودي} رواه البخاري (3) ومسلم (160)، ولا شك أن الذي يتبع الطريقة الصحيحة في إصلاح شؤون الناس كافة يُبتلى في طريقه أكثر من غيره، ولا بُد! يُبتلى بالشر ويُبتلى بالخير، وستكون هذي الشدائد قصصاً يستمتع بسردها لإخوانه في حياة الخلود، وسيضحكون عند سردها وتذكرها، فهذا يوم ضحك الصابرين {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [سورة المطففين: 34-35].

(2) كذلك الحق لا يُعرف بأمان أهله وسلامتهم، ولا بحسن معيشتهم ومظاهرهم، فقد ظنّ كفار قريش أنهم على حق؛ لأن مظاهرهم أحسن من أصحاب النبي ﷺ {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [سورة مريم: 73]، فهؤلاء علقوا الحق والخيرية بمظاهرهم وسلامتهم المادية الدنيوية المؤقتة، قال ﷺ: {كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ} صحيح البخاري (6943).

(3) أسوأ من الضلال: الرضا بذلك الحال، وترك البحث والسؤال {وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ} [سورة فصلت: 5].

وغياب هذه المقدمة يوقع كثيراً من أبناء المسلمين في الغلو في بعض العلماء أو المجاهدين بسبب تعرضهم للابتلاء من سجن ونفي وغيره، وتجدهم يعتقدون العصمة في أقوالهم وأفعالهم وإن لم ينطقوا بذلك!.

واعلم أنه قد ورد الأمرُ بالتفكر ولفظُ العقلِ ومشتقاتُه ومترادفاتُه في القرآن والسنة مئات المرات، لهذا قد يكون التفكر لساعة خيراً من قيام ليلة كاملة!.

وقد حكى الله لنا مقالة أهل النار بعد دخولهم فيها: { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك: 10]، ندِموا أنهم ما جردوا الحجج والأدلة من قائليها ومن كل ما حولها من مؤثرات.

وليُقسْ ما لم يُقلْ

المقدمة السابعة: المجتمع يؤثر - (إنك تأتي قوماً أهل كتاب)

أكل الخفاش أو الزواج بالبهائم أو عبادة الفئران وغيرها من العادات التي اعتادها بعض الناس في مجتمعاتهم، لم تأت جملةً واحدة، ولم يوصلهم الشيطان إلى هذا الدرك من الانحطاط جملة واحدة، ما أوصلهم إلى هذا الوضع في خطوة واحدة، بل تدرج معهم، خطوةً خطوةً ، جيلاً بعد جيل، {لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [سورة النور: 21]، الخُطوة -بضم الخاء- أقصر من الخَطوة -بفتح الخاء-، لا تتبع أقصر وأصغر وساوس الشيطان؛ لأن تأثيره عليك قد يبدو طفيفاً، ولكن تأثيره على الجيل الذي بعدك أعظم وأشد، والجيل الذي بعده أشنع وأسوأ، حتى يأتي جيلٌ يزعم أن هذا من عند الله; لاعتيادهم ولكثرة رؤيتهم لمن حولهم في مجتمعهم، اعتقدوا أن هذا الشيءَ السيئَ صوابٌ، بل وهو أمرٌ يحبه الإله!.

الأفكار غالباً لا تبقى كما هي، بل تتغير وتتطور جيلاً بعد جيل، وأكثر الناس يولد في بيئة ويقلد مجتمعه دون تفكر وتدبر، أكثر المجتمعات بهذي الطريقة، قال تعالى: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً} [يونس: 36].

كنت جالساً مع أحد طلابي، وقال لي: عن إذنك يا أستاذ، سأخرج مع أصحابي، قلت: من هم؟ قال: مجموعتي في اللعبة (اون لاين)، قلت له: واجهتهم من قبل؟ جلست معهم؟ قال: لا، بعضهم يكبرني بعشر سنين، وبعضهم يكبرني بخمس سنين وبعضهم أصغر مني، لكني أجتمع معهم -يقصد أنه يجتمع معهم في اللعبة في البلاي ستيشن- ونتحدث سوياً، فأعرف طبيعتهم وكيفية تفكيرهم... إلخ.

مجتمع افتراضي، لكنه يعتبر مجتمعاً، يجتمع مع غيره فيأخذ منهم ويأخذون منه، ويتوالفون ويتآلفون على أمور كثيرة ويتأثرون ببعض!.

بعد أكثر من عشر سنوات من دعوة الرسول ﷺ للناس في مكة إلى التوحيد، في مكة، قرر رسول الله ﷺ

الارتحال عن مكة ليهاجر إلى مكان آخر. هل يترك أحدٌ أفضل بقعة في الأرض؟ نعم، يتركها إذا كان يؤثر عليه المجتمع، أو إذا كان يؤثر على دعوته ورسالته فيشوهها!.

إذا كان المجتمع سيؤثر على رسالتك ويشوهُها، فعليك أن ترحل عن مجتمعك وتهاجر، كما هاجر الأنبياء من بلدانهم لمصلحة التوحيد ولضمان الخط الذي لا ينتهي، وأولهم إبراهيم-عليه السلام-إمام الحنفاء وإمام المهاجرين، حتى لو خسروا النقطة، فهم يهاجرون لمصلحة وسلامة الرسالة والدعوة، حتى لو خسروا النقطة. وهذا أفضل البشر ﷺ هاجر من مكة وترك مجتمعه لسببين اثنين، الأول: لمصلحته هو ومصلحة رسالته حتى لا تتأثر، والسبب الثاني: لمصلحة أهل مكة. نعم، ليضمن وضعه وحاله هو ومن معه ولا يتأثروا بمجتمع أهل مكة، لأن الوضع كان سيئاً للغاية، فالناس في مكة يؤثرون على من يؤمن ويؤذونهم لكي يتركوا الإسلام، فمنهم من ضُرب ومنهم من قُتل ومنهم من سُرق ماله، فلحماية الرسول ﷺ نفسَه وأصحابه من أن يتأثروا بالمجتمع من حولهم، قرروا التحول عن أرضهم، والهجرة إلى بلد آخر، هذا هو السبب الأول للهجرة، والسبب الثاني يتعلق بالمجتمع نفسه: لتتضح الرؤية لأهل مكة، وهذا لمصلحتهم، فالرسول ﷺ لا يستطيع إيصال حقيقة الإسلام لهم مع ما هم فيه، ولوجود أشخاص من كبراء وأسياد مكة يشوهون رسالة الرسول ﷺ و يمنعونه من الحديث بأريحية ويمنعونه من الدفاع عن من يؤمن، ويستخدمون الإعلام في مجتمعهم لتشويه صورة ودعوة الرسول ﷺ وأتباعه!.

بالوهم توجد دنيا لا وجود لها وتنطوي عنك دنيا أنت رائيها

وبالإعلام كذلك توجد دنيا لا وجود لها وتنطوي عنك دنيا أنت رائيها!. فلكي تتضح رسالة الرسول ﷺ ولا يتعرض للضغوط من مجتمعه فتتشوه رسالته عند الناس قرر الهجرة؛ لكي لا يوجّهه أو يمنعه أو يضيق عليه أحد، ولهذا تجد في التاريخ علماء شوهوا وخالفوا تعاليم الإسلام بسبب ضغوط مجتمعاتهم عليهم، سواءً كانت الضغوط بالأذى والتضييق، أو بالإغراء بالمال والمناصب!.

فكل هذي المؤثرات تؤثر على الداعية فيميل قلبه ورأيه للمال أحياناً، فالمال ميال، أو يضيق عليه فلا يستطيع أن يتحدث عن دين الله كما حدث للرسول ﷺ، ولهذا تجد كثيراً منهم يحرف أحكام الشريعة لتوافق طريقة من أعطاه المال أو المنصب، وليس على طريقة ومراد الله عزوجل، قال تعالى: { اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} [سورة التوبة: 9]، وقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ} [سورة البقرة: 174]، كاد المجتمع أن يؤثر على الرسول ﷺ، فكيف بك أنت؟.

وقال الله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ} [سورة الإسراء: 73]، في أكثر من موضع في القرآن يحذر اللهُ نبيَه من الاختلاط بهم إذا كانت لهم الغلبة ولم ينصفوه، وهو نبي! حتى لا يتأثر بهم فتتأثر الرسالة وتتشوه تبعاً، فالمجتمع يؤثر على كل أحد، شاء من شاء وأبى من أبى[1].

لننتقل إلى مشهدٍ عظيم وموقف ندامة لا مثيل له، ولنسمع خطاب أهل النار ممن تأثروا بمجتمعاتهم فتنازلوا وقدموا رضا مجتمعاتهم على أوامر الله، قدموا رضا المخلوق على رضا الخالق،

(1) كيف تُستنهض الهمم والأمم ويولد الإبداع في المجتمع وفي نفوس الأفراد، ومعظم الجهود والأوقات تُستثمر في تجنب غضب الحكام الظلمة والأنظمة المستبدة ويكون رضا المخلوق أولى من رضا الخالق الآمر بالعدل والإبداع؟.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً} [سورة النساء: 97]، كانوا قادرين على الهجرة ليحفظوا دينهم، لكنهم آثروا الدنيا {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [سورة الغاشية: 16]، آثروا الدنيا والمكوثَ مع من يحارب دين الله ولا يستطيعون الإنكار عليهم، مع أنهم لو هاجروا وغيروا أرضهم لحفظوا دينهم ولاستطاعوا تغيير غيرهم كذلك!.

كونك ولدت في بلدٍ ما، لا يعني بالضرورة أن تموت فيه، كلا، الأرض كلها للإنسان، {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} [سورة البقرة: 29]، والإنسان مأمور باتباع أوامر الله وليس مأموراً بالمكوث في منطقة واحدة حتى يموت، { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [سورة الملك: 15]، بل إن الرسول ﷺ أمر الصحابةَ بالهجرة إلى بلاد الحبشة وأكثر أهلها ليسوا مسلمين، أكثرهم كفار، لكن عندهم ملك عادل، أمر الصحابة مرتين بالهجرة، هجرة الحبشة الأولى وهجرة الحبشة الثانية، فتركوا مكة والمدينة، من يترك مكة والمدينة؟ تركوا أفضل أرض؛ لكي يقيموا العدل ويرفعوا الظلم، ولهذا كان من أنواع الهجرة أن يهاجر المسلم ويخرج من بلدة ظالمة -فيها مسلمون- ولكنه لا يستطيع فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فله أن يهاجر منها ولو إلى بلدة غالب أهلها كفار إذا كان يمكنه فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة لإقامة العدل ورفع الظلم؛ لأن بلد الإسلام في الحقيقة هو البلد الذي يمكنك فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون تضييق أو مصانعة -مجاملة أو مداهنة-، هذا هو بلد الإسلام. فمكة كانت بلد كفر مع وجود مؤمنين فيها قبل السنة الثامنة من الهجرة، لكنهم آنذاك لم يكونوا قادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلذلك كانت بلد كفر، وعندما دخلها الرسول ﷺ بمعاونة القبائل، خضع البقية للعدل الذي جاء به الرسول ﷺ فأصبحت بلد إسلام، وهي مكة[1].

وستُدرك بعد قراءة كلام أئمة الإسلام السابقين أن التقسيم المتقرر في أذهان كثير من الناس في زماننا حجَزَهم وحبَسَهم عن نصرة الإسلام في مواطن كثيرة، وعطّل كثيراً من الوسائل لنصرة الحق ورفع الظلم بلوازم وتبعات هذا التقسيم المجتزأ الذي لا يُنزله كثير من العلماء في زماننا كما أنزله السابقون من علماء الإسلام، وإنا لله وإنا إليه راجعون! ونتج عن هذا تصور خاطئ عند بعض المسلمين في كثير من مسائل الدين، وبأن الكفار على منزلة واحدة ولا فرق بينهم! وهذا مخالف لهدي الرسول ﷺ، كما روى البخاري في صحيحه أن ابن عباس رضي الله عنه قال: {كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى مَنْزِلَتَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ: كَانُوا مُشْرِكِي أَهْلِ حَرْبٍ، يُقَاتِلُهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُ،

---

(1) لم يرد مصطلح (بلد الإسلام) أو (بلد الكفر) في القرآن ولا في السنة، وإنما هو تقسيم اجتهادي، بل نُقل غيرُ هذا عن السلف، كما روي عن عُمَرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه أنه كَتَبَ إِلَى عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَإِلَى عُمَّالِهِ «أَنْ لَا يُقِيمُوا حَدًّا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ حَتَّى يَخْرُجُوا إِلَى أَرْضِ الْمُصَالَحَة». أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (18226) وغيره.

وقد كان السلفُ يُحذِّرونَ من البقاءِ بأرضٍ يَظهرُ فيها ظُلمُ الناسِ ويَشيعُ ويُشرَّعُ، وقد صحَّ عن سعيد بنِ المسيَّبِ قولُه: «إِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ يُوفُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ فَلَا تَعْجَلْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ لَا يُوفُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ فَعَجِّلْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا». تفسير ابن أبي حاتم (9/ 2811). وفي حاشية الدسوقي: «..لِأَنَّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ لَا تَصِيرُ دَارَ حَرْبٍ بِمُجَرَّدِ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَيْهَا بَلْ حَتَّى تَنْقَطِعَ إقَامَةُ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ عَنْهَا، وَأَمَّا مَا دَامَتْ شَعَائِرُ الْإِسْلَامِ أَوْ غَالِبُهَا قَائِمَةً فِيهَا فَلَا تَصِيرُ دَارَ حَرْبٍ». حاشية الدسوقي على الشرح الكبير(2/ 188). وهذا الأمر يكون في زماننا في بعض البلاد التي يحكمها غيرُ المسلمين، وأما حديث {أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ} فإنه حديث ضعيف، قال البخاري عنه: حديث مرسل، وأعلّه أبو حاتم الرازي، وهو مع هذا له قصة وسياق مختلف! ومعناه كما قال ابن حجر -رحمه الله-: «هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى دِينِهِ». فتح الباري (1/ 190). ولا شك أن معنى المخالطة وتأثيره على المسلم يتحقق في زماننا بمواقع التواصل، بل قد يكون تأثيرها أشد من المخالطة الجسدية، وإن كان الأصل عكسه، فتنبّه!.

وستقرأ عن تقسيم العلماء للدار -البلد- في القرن الثاني والثالث والرابع في بعض المسائل الفرعية، ولأنها مسألة خلافية، تجدهم مع اختلافهم فيها يدندنون حول غلبة أهل الإسلام وتطبيق شرائعه كما أمر الله ورسوله ﷺ وكما فعل الصحابة لا كما يقوله كثير من المضللين في زماننا، إلى أن تقرأ في القرن الثامن لابن تيمية عندما سُئل عن مَارِدِينَ، هل هي دارُ حَرْب أو دار إسلام؟ فقال: «هِيَ مُرَكَّبَة فِيهَا الْمَعْنَيَانِ لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ دَارِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ لِكَوْنِ جُنْدِهَا مُسْلِمِينَ، وَلَا بِمَنْزِلَةِ دَارِ الْحَرْبِ الَّتِي أَهْلُهَا كُفَّار، بَلْ هِيَ قِسْمٌ ثَالِث يُعَامَل الْمُسْلِمُ فِيهَا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ وَيُعَامَل الْخَارِج عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ». الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 190).

وقال السرخسي (ت483هـ): «لِأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي لَا يَأْمَنُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ جُمْلَةِ دَارِ الْحَرْبِ، فَإِنَّ دَارَ الْإِسْلَامِ اسْمٌ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُ تَحْتَ يَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ أَنْ يَأْمَنَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ». شرح السير الكبير (ص1253).

«وعند الشافعي: الدنيا دار واحدة». البناية شرح الهداية (7/ 217).

وَمُشْرِكِي أَهْلِ عَهْدٍ، لَا يُقَاتِلُهُمْ وَلَا يُقَاتِلُونَه}[1].

وتغييب هدي الرسول ﷺ واجتزاءُ بعض هديه بما يخدم مصالح بعض الكبراء في بعض البلاد هو من أظهر أعمال ومهام علماء السوء، ولا عجب! قال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة البقرة: 85]، وقال الصادق المصدوق ﷺ: «لأنا من الأئمة المُضلّين أخوف على أمتي من المسيح الدجال»[2]، وقال ﷺ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»[3]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يهدمُ الإسلامَ زلةُ العالم، وجدالُ المنافق بالكتاب، وحكمُ الأئمة المضلين»[4].

وقد تعجبت عنما ذهبت لبعض البلاد فوجدتهم لا يأكلون الدجاج، فسألتهم عن ذلك فقالوا: إن من يأكل شيئاً فإنه يكتسب من صفاته ولا بد! ومن يأكل الدجاج تجده داجناً خائفاً مخالفاً لطبيعة الإنسان السوي الشجاع المهاجر الذي يسعى لعمارة الأرض كما كان البشر الأوائل...إلخ.

ولدينا عشرات الآيات والأحاديث التي تتحدث عن فضل الهجرة وأنواعها وعِظَمِ أثرها، لكن كثيراً من الدعاة في زماننا لا يشرحونها، بل ولا يذكرونها فضلاً عن شرحها! إما خوفاً وإما كتماناً للعلم أو لغيرها من الأسباب.

فتذكر دائماً، أن المجتمع يؤثر.

واخسر شيئا من دنياك لتعمر آخرتك على أحسن طريقة، فالمجتمع يؤثر.

وليُقسْ ما لم يُقلْ

(1) صحيح البخاري (5286).

(2) رواه أحمد 21297.

(3) رواه أبو داود (4252)، والترمذي (2229).

(4) رواه الدارمي في سننه 220.

المقدمة الثامنة: التجديد مطلب؟

التجديد في الأرض هو سبب إنزال آدم عليه السلام إلى الأرض، قال تعالى: {إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة: 30]، وقال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [سورة هود: 61]، وفي هذا دلالة على وجوب عمارة الأرض بالتعليم والزراعة والبناء...إلخ، فالله عز وجل يأمرنا أن نجدد في الأرض ونعمرها بأحسن طريقة.

والتجديد لا يعني إلغاء الشيء بالكلية أو تعطيلَه، كما أن التجديد لا يطرأ على كل شيء أيضاً، كل شيء تجدد فيه وتغير فيه؟ لا، ليس الأمر كذلك. روى الإمام أحمد في مسنده أنه ﷺ قال: { جَدِّدُوا إِيمَانَكُم}[1]، يعني ايش نجدد إيماننا؟ نجعل صلاة الظهر سبع ركعات؟ أو نصوم شهر صفر بدل شهر رمضان؟ كلا، تجديد الإيمان يعني التعرف على الله أكثر بتدبر القرآن واتباعه، وإدراك واستيعاب تطبيق الرسول ﷺ لهذا القرآن والتأملِ في تطبيقه ﷺ ومعرفةِ المقاصد التي يسعى لها وعللِ الأحكامِ وأسبابِها وغاياتِها، هذا المفهوم مهم جداً، ولا يكفي أن تعرف فقط! لأن معرفة الأحكام الشرعية قد تتطلب منك أشهراً، لكن إدراك واستيعاب مقاصد الشريعة لا يكون إلا بعد سنين من تأملاتك لتطبيق الرسول ﷺ، بعد سنين من تأملاتك لتطبيق الرسول ﷺ واستذكارها وتدبرها دائماً، إلى أن يتشرّب عقلك المصالح التي من أجلها شُرعت الأحكام، عندئذٍ تُجدد أحكامَ الشريعة الاجتهادية و أحكامَ عمارة الأرض والنُظمَ الاجتماعيةَ وغيرَها.

وإليك بعض الأمثلة: هذا رسول الله ﷺ يأمره الله عز وجل وهو الرسول، يأمره الله باستشارة أصحابه {وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [سورة آل عمران: 159]، الشورى مبدأ عظيم جداً ومهم من أجل عمارة الأرض، ودولة الإسلام دولةُ شورى، وليست دولةَ استبداد وتفرّد بالحكم، قال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُم} [سورة الشورى: 38]، استشار رسول الله ﷺ الصحابة -رضي الله عنهم- في غزوة أحد، هل يخرجون للقاء العدو خارج المدينة أو يبقون داخل المدينة ويقاتلونهم إذا دخل المشركون؟ وكان رأي رسول الله ﷺ أن يبقوا داخل المدينة فيواجهونهم وهم بين أهلهم وقومهم؛ لأن هذا يعطيهم فرصة أكبر في الفوز والغلبة، ولكن غالبية الصحابة -رضي الله عنهم- رأوا أن يخرجوا وأحبوا لقاء العدو خارج المدينة،

(1) رواه أحمد في مسند (8710).

فأخذ رسول الله ﷺ برأيهم، وهو له رأي مخالف وهو رسول الله! ومع هذا أخذ برأي الأغلبية؛ لأن هذا الأمر يدخل في الأمور الاجتهادية التي لا نص صريح فيها، بل هو مفوض لاجتهاد الناس، فلهم أن يجددوا فيه كيفما شاؤوا، بما يضمن المصالح -أو يغلب على الظن تحصيلها- ويدفعُ المفاسد -أو يغلب على الظن دفعها-.

فمبدأ الشورى موجود في الإسلام وطبقه الرسول ﷺ، وجدد الصحابة -رضي الله عنهم- فيه عند اختيار حاكم يحكمهم، كما جددوا في كثير من التراتيب الإدارية فإنهم جددوا في أمر الشورى، أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- ، عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-، عثمان بن عفان-رضي الله عنه-، علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-، كلهم بويعوا بالشورى، إلى أن جاء معاوية بن أبي سفيان-رضي الله عنه- بعدهم وجعل الولاية من بعده لابنه يزيد، مخالفاً بذلك مبدأ الشورى وهدي الصحابة من قبله في هذه المسألة، فما كان له أن يختار ابنه يزيد حاكما للناس من بعده فإن هذا مخالف لمبدأ الشورى الذي أُمر به الرسول ﷺ {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[سورة آل عمران: 159]، وسار عليه الخلفاء الراشدون من بعده {وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُم}[سورة الشورى: 38]، وإذا أراد أحدنا أن يطبق طريقة الخلفاء الراشدين في زماننا هذا فلن يستطيع؛ لأن ظروفهم ووسائلهم ليست لدينا، فنحتاج عندئذٍ لتجديد الشورى في زماننا، وقد يكون هذا بصناديق الاقتراع المعمول بها في بعض البلاد مثلاً، صناديق الاقتراع تحقق مبدأ الشورى ولا تخالف مقصده، فنستعمل ونوظف صناديق الاقتراع لتحقيق مبدأ الشورى، وهذا يعتبر تجديداً في مفهوم الشورى ولا يخالف روح وجوهر ومعنى الشورى، لا يخالف المقصد من مشروعية الشورى.

ولا يقبل اعتراض من يقول: إن علينا أن نتبع الكيفية التي استعملها الصحابة في آلية الشورى، نفس الآلية؟ كلا، فهذا جمود لا يحقق مقصد الشورى! فالإسلام شرّع وأرسى مبدأ الشورى ولم يحدد آليته من غير نسيان، فهذا مفوض إلى اجتهاد الناس.

ولنعلم أن من أهم مميزات دولة الإسلام: الشورى، ومن عطل الشورى فقد عطل تسعة أعشار الإسلام، فالشورى تحتاج إلى تجديد.

وقل مثل ذلك أيضاً في المثال الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ما يصح أن نستعمل نفس آليات ووسائل الصحابة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلدينا وسائل لعرض الأوامر لم تكن موجودةً زمن الصحابة، ولو وجدت في زمانهم لاستعملوها، فمثلاً: كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يخطب في الناس يوماً، فقال فيما قال: «إن المال مالنا والفيء فيؤنا، فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه» فرد عليه أبو بحرية عبدُ الله بنُ قيس وقال: يا معاوية كلا، إنما المال مالنا والفيء فيؤنا[1]، قال له الرجل أمام الناس: يا معاوية كلا، إنما المال مالنا والفيء فيؤنا، ومن حال بيننا وبينه حاكمناه بأسيافنا!. كل هذا أمام أنظار الناس، شخص يناصح الحاكم صاحب أعلى منصب في الدولة! المال مالنا، أي: نحن وكلناك أمر أموالنا وهذا المال ليس مِلكاً خاصاً لك، بل هو لنا جميعاً وأنت خادم لنا.

وهذا هو مفهوم الحاكم: خادم وأجير عند الشعب وليس متحكماً بالشعب وبأملاك الشعب!.

فلما رد هذا الرجل على معاوية رضي الله عنه بهذا الكلام، سكت معاوية، ثم رد عليه رداً لا يتوقعه أكثر الناس في هذا الزمن، وهو الرد الصحيح الموافق للكتاب والسنة، لما سمعه معاوية يقول هذا الكلام قال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: {سيكون بعدي أئمة يقولون فلا يرد عليهم قولُهم يتقاحمون في النار تقاحم القردة} وإني خشيت أن أكون منهم، فلما رد علي هذا أحياني أحياه الله، فرجوتُ أن يُخرجني الله منهم».[2]

(1) ما قال له: معاليكم، طال عمرك، يا صاحب السمو!.

(2) تاريخ دمشق لابن عساكر (59/ 168)، ورواه أبو يعلى في مسنده (7382)، وصححه الألباني (398/4) وحسين أسد محقق مسند أبي يعلى (13/ 373)، وأخرج الطبراني في الأوسط المرفوعَ منه (5311). وقال الإمام البخاري في التاريخ الكبير في ترجمة بشير بن سعد الأنصاري والد النعمان: «قال لي عبد العزيز بن عبد الله: حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني محمد بن النعمان بن بشير، أن أباه أخبره، أن عمر-رضي الله عنه- قال يوماً في مجلس، وحوله المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمر، ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا، فعاد مرتين، أو ثلاثا، قال بشير بن سعد: لو فعلت قومناك تقويم القدح، قال عمر رضي الله عنه: أنتم إذن أنتم». التاريخ الكبير (98/2).

فهذا معاوية-رضي الله عنه-كان يذكّر الناس وعلى منبر الجمعة بوجوب التناصح والأخذ على يد الحاكم وتقويمه إن خالف الشرع.

لأن حفظ هيبة الحق أولى من حفظ هيبة الحاكم، حفظ مقام وهيبة الدين أهم وأولى من حفظ مقام وهيبة كل أحد وكِيان، كائناً ما كان.

فإذا كان منا مثل هذا الإنكار من هذا الرجل -الذي أنكر على معاوية- في زماننا في بعض المجتمعات، فإنه قد لا يناسب زماننا ولا يحقق المراد، لهذا، علينا أن نستعمل وسائل أخرى تحقق الغاية من مشروعية هذا الأمر، بما يناسب الزمان والمكان، امتثالاً لأمر الشارع، قال تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل: 125] ، فالحكمة مطلوبة، جدد في الوسائل والأساليب، شكّل قالباً للنصيحة يناسب المكان والزمان[1].

ويبدو واضحاً للمتأمل في سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم، أنهم يعظمون شأن النصيحة ويرونها أساس الدين، فالدين كله قائم على النصيحة، قال ﷺ: {الدِّينُ النَّصيحةُ} [2]، لهذا فعلى الحاكم أن يجدد شعيرة التناصح ويتقبل النصح من غيره ويعينَ الناس على تجديد هذي الشعيرة العظيمة، ولو كان على المنبر أمام الملأ، كما فعل معاوية-رضي الله عنه-؛ لأن معيار بلد الإسلام يكمن في إمكانية النصح دون خوف أو مصانعة.

والتجديد أيضاً يدخل في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [سورة الأنفال: 60]، فالإعداد بالسلاح لمواجهة العدو لا تكون كما فعل الصحابة رضي الله عنهم بالسيوف والرماح فحسب، فهذا جمودٌ لا يُقبل شرعاً وعقلاً ! فالتجديد فيه مطلب واجب وضروري.

ومثلها في مسألة الوصية التي هي من أهم الواجبات على المسلم، فالرسول ﷺ يقول: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مكتوبة عنده»[3]. فطريقة كتابة الوصية لا يلزم أن تكون كما في السابق، بأن تكتبها في ورقة وتضعها تحت فراشك، كلا، فقد ترسلها لبعض أصدقائك أو أقاربك ممن تثق بهم بأي طريقة مكتوبة أو في مقطع مرئي أو مسموع، وتجددها كل فترة بما يحقق الحكمة والعلة التي من أجلها شُرعت كتابة الوصية، وهذا يعتبر تجديداً[4].

يقول النبي ﷺ: {إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا}[5].

يجدد لها أمر دينها كما ذكرنا، ولا يغير الأحكام، بل يجدد الأساليب والوسائل بما يحقق المصالح التي أمر بها الإسلام.

علينا أن نجدد القوالب والأساليب في شتى مجالات الحياة بما يوافق مصالح البشرية وعمارة الأرض، وكونك تريد التجديد لا يعني أن تغير الحقائق الثابتة كعلم الحساب، كأن تغير ناتج إضافة واحد لاثنين فتقول إن الناتج هو ستة! كيف تغير هذي؟ أو أن تقول بجمع النقيضين بدعوى التجديد!.

---

(1) كتب عمر بن عبد العزيز إلى التابعي الجليل: سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، يطلب منه أن يرسل إليه أقضية جدِّه عمر بن الخطاب في أهل الذمة؛ ليقضي بها فيهم.
فكتب إليه سالم: «فأسألُ اللَّهَ الذي ابتلاكَ بما ابتلاكَ بِهِ أَنْ يُعِينَكَ عليه فإنك لَسْتَ في زمانِ عُمَرَ وليس عندكَ رجالُ عُمَرَ!». ثم أوصاه وصية تدل على الأمر بالتجديد، فقال:
«فَأَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي ابْتَلَاكَ بِمَا ابْتَلَاكَ بِهِ أَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهِ فَإِنَّكَ لَسْتَ فِي زَمَانِ عُمَرَ وَلَيْسَ عِنْدَكَ رِجَالُ عُمَرَ فَإِنْ نَوَيْتَ الْحَقَّ وَأَرَدْتَهُ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَتَاحَ لَكَ عُمَّالًا وَأَتَاكَ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ فَإِنَّ عَوْنَ اللَّهِ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ فَمَنْ تَمَّتْ نِيَّتُهُ فِي الْخَيْرِ تَمَّ عَوْنُ اللَّهِ لَهُ وَمَنْ قَصُرَتْ نِيَّتُهُ قَصُرَ مِنَ الْعَوْنِ بِقَدْرِ مَا قَصُرَ مِنْهُ وَالسَّلَامُ». الزهد لأحمد بن حنبل (ص244).

(2) رواه مسلم (1627).

(3) رواه البخاري (2738) ومسلم (1627).

(4) تأمل هدي الرسول ﷺ واتبع المصالح التي اتبعها هو ﷺ، ولا تتبع مصالح مجتمعك ومن تحب وتعظّم! فلكل مجتمع عظماء، وتختلف مصالحهم، وكل مجتمع من هذه المجتمعات يؤيد العظماء في مجتمعه! ولا يؤيد مصالح الإسلام {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [سورة المؤمنون: 53]. فإن كانت غاية المصلح تأييد العظماء في مجتمعه فلن ينصر الإسلام أبداً، ولا يمكنه التجديد بما يوافق مصالح العباد والبلاد التي جاء بها الإسلام! فلا تجديد إلا بالتجرد من المؤثرات.

(5) رواه أبو داود (4291) وغيره.

ثمة حقائق ومفاهيم ثابتة، إلغاؤك لها يضر بالبشرية والأرض وما عليها، ولا تقبل التجديد هي أصلاً!.
جدد القوالب وطريقة العرض والأساليب بما يوافق عمارة الأرض على النحو الصحيح، فالتجديد لا يعني إلغاء المفاهيم الصحيحة التي تنفع البشر، بل يعني إحياءها بما ينفعهم على أحسن طريقة، وبما يحقق المصالح على أفضل وجه.

وليُقسْ ما لم يُقلْ

المقدمة التاسعة: ثم ماذا ؟

عندما تتأمل كل لحظات ومواقف حياتك، المواقف الجيدة والمواقف السيئة، اللحظات السعيدة واللحظات الحزينة، الخطرات والخطوات، تجد أن حقيقتها ونهاياتها اضمحلال وتلاشي.

[ثم ماذا؟]

كل شيء وكل متعة مر بها قبلك الناس، كل الناس، الملوك والتجار والفقراء والمساكين، لا وجود له الآن، كما أن كل ما تمر به الآن لن يكون له وجود بعد مئة سنة.

[ثم ماذا؟]

ما قيمة الحياة إذاً إذا كان نهايتها لا شيء؟

كثير ممن انتحر كان قبل موته بأيام يسأل من حوله عن محور واحد فقط، واقرؤوا في قصصهم، كانوا يسألون سؤالاً وجودياً: (لماذا أنا موجود؟) مع أن كثيراً منهم يعيش في رفاهية ويملك ما لا يملكه أكثر الناس! ومع هذا يقض مضجعه هذا السؤال: لماذا أنا موجود؟ إلى ماذا أسير؟ ما الذي أوصلني لهذا الذي أنا عليه الآن؟ بماذا سأشعر بعد أن تنتهي حياتي؟ تنتهي حياتي وأنتهي؟ لن أشعر بشيء؟ ما فائدة وجودي إذن؟.

[ثم ماذا ؟]

لا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ يَبْقَى الإِلَهُ وَيَفْنَى الْمَالُ وَالْوَلَدُ
أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ مُسَلَّطَةً مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْـهَا رَاكِب يفدُ

[ثم ماذا؟]

عندما تريد فعل أي شيء في أي مجال ومع أي أحد، فاسأل نفسك هذا السؤال الجوهري المهم: (ثم ماذا؟) عندما تبني لنفسك مشروعاً أو لغيرك أو عندما تشاهد غيرك يفعل ما يفعل، تساءل: (ثم ماذا؟) عندما يقتل الظالم

مئات أو آلاف الناس دون حق: ثم ماذا أيها الظالم؟ عندما يسجُن الظالم مئات المصلحين بلا حق: ثم ماذا أيها الظالم؟ عندما تنصر أنت هؤلاء المظلومين بأي مشروع، بكلمة، بتغريدة، بمقطع مرئي أو مسموع، بدعاء في الثلث الأخير، بالحث على نصرة المظلومين عند أقاربك وأصحابك (ثم ماذا؟)

عندما يقف شخص أمام حاكم ظالم فيقول كلمة حقٍ ليسود العدل وينزجرَ هذا الظالم، فيقتله هذا الحاكم (ثم ماذا؟) هل انتهت القصة؟ نعم، انتهت القصة في عقل الإنسان الضعيف الجاهل وتصوره فحسب، الذي لم يتساءل (ثم ماذا؟)

في الحديث الصحيح يقول ﷺ: {سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ}[1].

[ثم ماذا ؟]

تتغير ردود أفعالك في كل شيء إلى الأفضل إذا استحضرت هذي المقدمة.

[ثم ماذا ؟]

وليس العاقل من يعرف أين يضع قدمه في السير، بل العاقل من يعرف إلى أين ينتهي به هذا المسير.

فهذا نبي من الأنبياء دعا قومه إلى العدل ورفع الظلم فقاموا إليه وضربوه حتى أدموه واستمروا في ضربه حتى صُرع، صرع من شدة الضرب! فلما أفاق قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[2].

[ثم ماذا ؟]

البوصلة ما تتأثر عندما تكون مستحضراً لهذي المقدمة، وكل معاييرك في الحياة ستتبدل إلى الأنفع والأصلح لك ولغيرك.

[ثم ماذا؟]

لو ملكت كل أسبابِ النعيم في الدنيا واستطعت شراء أي شيء والذهابَ لأي مكان في الأرض، فإن هذا الشيء إذا كان محصوراً ومحدوداً بالزمان وله وقت محدد ينتهي فيه، فلا وزن ولا قيمة له أبداً أبداً[3]!.

وإذا تعقبت الأمور كلها انتهى تفكيرك إلى اضمحلال جميع أحوال الدنيا واستقر تفكيرك على الحقيقة الواحدة، وهي أن العمل لا يكون إلا للآخرة فقط. لماذا الآخرة؟ لأنه لا حد ولا نهاية فيها، خلود أبدي وتجدد في كل شيء جميل -لمن حسن عمله-، تجدد لا نهائي وغير محدود، وكل يوم في الجنة يكون أفضلَ من الذي قبله، كل يوم، إلى الأبد، بلا ملل.

(1) رواه الحاكم في المستدرك (4884) وغيره.

(2) من الحديث الذي رواه أحمد في مسنده (4203)، وانظر صحيح البخاري (3477،6929) وصحيح مسلم (1792).

(3) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ ما هو أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ». رواه البخاري (3334) ومسلم (2805).

فكل شيء تفعله، عليك أن تنظر إلى مآله وأثره وثمرته، فإن كانت ثمرته نعيماً دائماً لا انقطاع فيه ولا نقصان، فافعله لله تعالى؛ فإن العمل لا يعظم ولا يكون له أي قيمة أو قدر إلا إذا كان خالصاً لله، وعلى طريقة الله[1].

قال الله تعالى: {كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة؟} [سورة القيامة: 20-21].

{بل تؤثرون الحياة الدنيا؟ والآخرة خيرٌ وأبقى} [سورة الأعلى: 16-17]، الشيء الذي لا يبقى، لا وزن ولا قيمة له أبداً أبداً.

[ثم ماذا؟]

ثم خلودٌ في نعيم أو خلودٌ في جحيم.

[ثم ماذا؟]

ثم خلود في نعيم أو خلود في جحيم.

[ثم ماذا؟]

ثم خلودٌ في نعيم أو خلودٌ في جحيم.

[ثم ماذا؟]

ثم خلودٌ أبدي، لا نهاية له أبداً...

وليُقسْ ما لم يُقلْ

(1) وهذا هو معنى أن يكون العمل {فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ}: بأن يكون على سبيل الله، أي: على طريقته التي شرعها، وفي سبيل الله، أي: تبتغي به وجه الله، وهما شرطا قبول العمل: الإخلاص والمتابعة.

المقدمة العاشرة: النية الصحيحة لا تعني أن العمل صحيح (اعرف مصدر كل معلومة)

هذا طبيب أراد أن يجري عملية قلب لأبيه اضطراراً، مع أنه لا يحسن هذا النوع من العمليات، فحصل خلاف ما كان يرجوه، وإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يفلح، فانتقل أبوه إلى جوار ربه، غفر الله للمسلمين جميعاً[1].

رَامَ نَفْعًا فَضَرَّ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ ومِنَ البِرِّ ما يَكُونُ عُقُوقاً[2]

ليس كل من أراد الخير أصابه، فكثير من الناس يزعم أن نيته صحيحة لكن عمله خاطئ، وهذا موجود في كل العلوم وفي كل الفنون، ويخطئ في هذي النقطة كثير من المسلمين؛ لأنهم يخلطون بين موازين الدنيا وموازين الآخرة.

العاقل في الدنيا يحكم بالظاهر -يحكم بما ظهر له- ولا يجوز التدخل في النيات؛ لأن هذا لا علاقة لنا به في الدنيا، بل نحكم بما نرى، ونخطّئ من ظهر لنا خطؤه وإن كانت نيته صحيحة.

خالد بن الوليد-رضي الله عنه- قال مرةً أمام الرسول ﷺ: كم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه[3]، فرد عليه ﷺ وقال له: {إني لم أومر أن أنقّب عن قلوب الناس}! هذا الرسول ﷺ لم يؤمر بالتدخل في نيات الناس ولا شق بطونهم! فكيف يجرؤ بعضهم ويتدخل في نيات الناس؟ والرسول ﷺ قال أيضاً: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وأحسب أنه صادق، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرُكْهَا»[4].

(1) يقول ابن تيمية: «وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانةً أنها تفعله طاعةً لله». مجموع الفتاوى (207/28).

(2) البيت يُنسب للشافعي -رحمه الله-. انظر: وفيات الأعيان (167/4).

(3) القصة في صحيح البخاري (4351)، وصحيح مسلم (1064).

(4) رواه البخاري (6967)، ومسلم (1713).

هـذا الرسـول ﷺ يقـضي بـين النـاس بمـا ظهـر لـه وإن كان المختصـم كاذبـاً ولكنـه زيّـن قولـه وحجتـه، أو إن كان صادقـاً ولكنـه لم يتمكـن مـن تبيـان وتوضيـح حجتـه، فالرسـول ﷺ يقـضي بمـا سـمع وبمـا ظهـر لـه مـن أدلتهـم وحُجَجِهـم، وهـذا هـو الحكـم الدنيـوي الـذي أمرنـا اللـه بـه، ثـم يكـون هنـاك حكـم آخـر يـوم القيامـة {وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِـذِ الْحَـقُّ} [الأعـراف: 8]، ولا شـأن لنـا بـه ولم نُكلّـف بـه، فالنيـات مردهـا إلى اللـه، ولا يمكـن لأحـد ولا يُقبـل عقـلاً ولا شرعـاً أن نحكـم عـلى أحـد بنـاءً عـلى نيتـه؛ فنحـن بَـشَر[2].

عندمـا تكـون نيتـك صحيحـة وعملـك خاطئـاً ثـم يأتيـك مـن يصحـح لـك خطـأك، فعليـك أن تتقبـل تصحيحـه ونصيحتـه وتقـولَ لـه: صدقـت، أنـا أخطـأت، شـكراً لـك، وسـأصحح خطئـي، ولا يفيـدك البتـة أن تقـول لـه: ولكـن نيتـي كانـت صحيحـة! مالنـا ولنيتـك؟ فالنيـة بينـك وبـين اللـه، وليسـت بينـك وبـين النـاس[3].

ويخطـئ كثـير مـن النـاس عندمـا يـبررون صحـة أعمالهـم لأن نيتهـم حسـنة وصحيحـة، فليـس كل مريـدٍ للخـير يصيبـه! كـما قـال فقيـه الصحابـة عبـدُ اللـهِ بـنُ مسـعود-رضي اللـه عنـه-: {كَـمْ مِـنْ مُرِيـدٍ لِلْخَـيْرِ لَـنْ يُصِيبَـهُ}[4].

ما العمل إذاً إذا لم تكن النية كافية؟

عليـك أن تعـرف مصـدر كل معلومـة قبـل أن تبـدأ في العمـل، اعـرِف مصـدر كل معلومـة، اعـرف مصـدر كل معلومـة قبـل أن تعمـل، ولا تنخـدع بأحبابـك أو العظـماء في مجتمعـك، فـإن الحـق لا يرتبـط بالأحبـة أو الأصدقـاء أو الأقـارب، ولا يرتبـط بالحـكام أو الرمـوز المشـهورة ذائعـةِ الصيـت، عليـك أن تعـرف الحـق مـن مصـدره، كل معلومـة لهـا مصـدر صحيـح تسـتند عليـه، كل معلومـة لهـا مصـدر يجـب الاسـتناد عليـه، في كل علـم هنـاك مصـادر صحيحـة عـلى أصحابهـا ربـط المسـتفيدين بهـذي المصـادر، عـلى العلـماء في كل مجـال ربـط المسـتفيدين بهـذي المصـادر، أو أن كلامهـم لا معنـى لـه ولا يوثـق بـه، ولا يُعتمـد عليـه ولا يُعـوّل عليـه، لا بـد عـلى صاحـب كل علـم أن يحـترم العلـم ويحـترم عقـول النـاس، بـأن يربطهـم بالمصـادر الصحيحـة.

وأنـت كذلـك، لا تأخـذ علمـك مـن غـير مصـدره، فـإن اتبعـت كلام شـخص مشـهور أو اتبعـت رأيـاً مشـهوراً، فـلا تلومـنّ إلا نفسـك إذا تبـين لـك أنـك كنـت مخطئـاً وتبـين فيـما بعـد أن الذيـن اتبعتهـم مخطئـون! وقـد أخبرنـا اللـه -عـالم الغيـب- أن أكـثر أهـل النـار هـم الذيـن يقلـدون غيرهـم بـلا تثبـت وبـلا برهـان صحيـح، بـل اتبعـوا غيرهـم لظـروف معينـة، كأن يكونـوا قلـدوا كبراءهـم في البلـد أو قلـدوا آباءهـم وأجدادهـم أو قلـدوا الأقـوى في مجتمعهـم في الدنيـا، ويُسـألون يـوم القيامـة: {أَوَلَـمْ تَـكُ تَأْتِيكُـمْ رُسُـلُكُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ} [سـورة غافـر: 50]، فيلعـن بعضهـم بعضـاً و {يَقُـولُ الَّذِيـنَ اسْـتُضْعِفُوا لِلَّذِيـنَ اسْـتَكْبَرُوا لَـوْلا أَنْتُـمْ لَكُنَّـا مُؤْمِنِـينَ} [سـورة سـبأ: 31]، يعنـي لـو أنكـم لم تكونـوا في مجتمعنـا ووقفتـم بيننـا وبـين تأمـل الوحـي لكنـا مؤمنـين! فـيرد عليهـم الكـبراء في ذلـك الوقـت: {قَـالَ الَّذِيـنَ اسْـتَكْبَرُوا لِلَّذِيـنَ اسْـتُضْعِفُوا

(1) رواه البخاري (6967) وغيره، ومسلم (1713).

(2) عُمَـرُ بْـنُ الخَطَّـابِ رضي اللـه عنـه يَقُـولُ: «إِنَّ أُنَاسًـا كَانُـوا يُؤْخَـذُونَ بِالوَحْـيِ فِي عَهْـدِ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ ، وَإِنَّ الوَحْـيَ قَـدِ انْقَطَـعَ، وَإِنَّمَـا نَأْخُذُكُـمُ الآنَ بِمَـا ظَهَـرَ لَنَـا مِـنْ أَعْمَالِكُـمْ، فَمَـنْ أَظْهَـرَ لَنَـا خَـيْرًا، أَمِنَّـاهُ، وَقَرَّبْنَـاهُ، وَلَيْـسَ إِلَيْنَـا مِـنْ سَرِيرَتِـهِ شَيْءٌ، اللَّـهُ يُحَاسِـبُهُ فِي سَرِيرَتِـهِ، وَمَـنْ أَظْهَـرَ لَنَـا سُـوءًا لَـمْ نَأْمَنْـهُ، وَلَـمْ نُصَدِّقْـهُ، وَإِنْ قَـالَ: إِنَّ سَرِيرَتَـهُ حَسَـنَةٌ». صحيـح البخـاري (2641).

(3) انـشراح الصـدر وراحـة النفـس بالـرأي لا تجعـل منـه حقـاً، فقـد يكفـر الإنسـان وهـو مطمـئن، وقـد يؤمـن وهـو كاره، قـال تعـالى: {وَلَٰكِـن مَّـن شَرَحَ بِالْكُفْـرِ صَـدْرًا فَعَلَيْهِـمْ غَضَـبٌ مِّـنَ اللَّـهِ} [النحـل: 106]، فقـد كفـروا وهـم مطمئنـون!، وقـال تعـالى: {قُـلْ هَـلْ نُنَبِّئُكُـمْ بِالْأَخْسَـرِينَ أَعْـمَالاً الَّذِيـنَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا وَهُـمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُـمْ يُحْسِـنُونَ صُنْعـاً} [الكهـف: 103-104]. فعلينـا بالظاهـر في الدنيـا، واللـه يتـولى السرائـر، فمـن أخطـأ ظاهـرهُ -ولـو كانـت نيتـه صحيحـة- فعلينـا أن نأمـره بتصحيـح الخطـأ الظاهـر.

(4) أخرجه الدارمي (210) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (2005).

أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} [سورة سبأ: 32]، كنتم مجرمين لأنكم اتبعتمونا باختياركم وبإرادتكم. خصام! يتخاصمون وقت النتائج والجزاء، فيغضب هؤلاء الذين قلدوهم في الدنيا ليردوا عليهم فيقولون: {رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً} [سورة الأحزاب: 66-68]، مع أنهم كانوا يقلدونهم في الدنيا ويأمرون الناس أيضاً أن يقلدوهم ولا يخالفوا السائد والمشهور في مجتمعهم! [لا تخالف الناس يا أخي، كيف تخالف توجهات الحكومة، كن مع الناس أينما ذهبوا...] سبحان الله! هم أنفسهم ينقلبون على هؤلاء الكبراء يوم القيامة ويقولون لله: {رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُون} [سورة الأعراف: 38]، غبن والله ومصيبة هذي! نعوذ بالله من هذا الخزي والضلال.

لماذا قدمت أمر هذا المخلوق على أمر الله؟ هذي والله مصيبة كبيرة ومعصية عظيمة لا يرضاها الله، أن تقدم على أوامره أوامر بعض المخلوقين! لهذا يقول الله لهم وهم يختصمون يوم القيامة: {لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيد} [سورة ق: 28]، قد قدمت لكم آياتي وأوامري في الدنيا وبَلَغتكم وكنتم تقرؤونها ومع هذا عطلتم عقولكم وتركتم أوامري واتبعتم أوامر المخلوقين؟

ابحث بنفسك واستعمل عقلك حتى لا تندم فيما بعد[1]! فقد ورد الأمر بالتفكر ولفظُ العقل ومشتقاتُه ومترادفاتُه في القرآن والسنة مئات المرات!.

اعرف مصدر كل معلومة وتحقق من صحتها وتأكد من معناها وتثبت من تفسيرها، ثم اعمل بها؛ حتى لا تندم في الدنيا والآخرة، فإن النية الصحيحة وحدها لا تكفي لصحة العمل.

وليُقسْ ما لم يُقلْ

(1) كل ما حولك من مؤثرات من أحبة وأصدقاء وأقارب، هم من جملة الابتلاء الذي قدّره الله لك؛ ليعلم صدق اتباعك لأوامره، وصدق جهادك لمخالفة الضغوط التي تكون من حولك والمؤثرات التي تصرفك عن اتباع أوامر الله.

تم بحمد الله

المقدمات العشر مرئيةً مسموعةً في هذا الرابط : www.thetenpremises.com

عن الكتاب:

هذه أهم عشر معلومات شرعية عقلية، تجعلك تدرك الأمور إدراكاً صحيحاً دون اضطراب أو اختلال وتضع كل مسألة في موضعها الصحيح بالميزان الصحيح، فلكل موضوعٍ مقامٌ وقدرٌ لو لم يوضع فيه لاختلت المفاهيم ثم اختل العمل ولا تكون العواقب كما يُراد لها أن تكون، فالأكثر أهميةً من جمع المعلومات هو وضع كل معلومة في موضعها الملائم، لكي تحصل على المفاهيم الصحيحة.